زهرة عبد الجليل الكوسى
ZAHRA ABDULJALEEL ALKUSA

قبّة السّماء

سيرة إبراهيم سلامة في سجن عسقلان

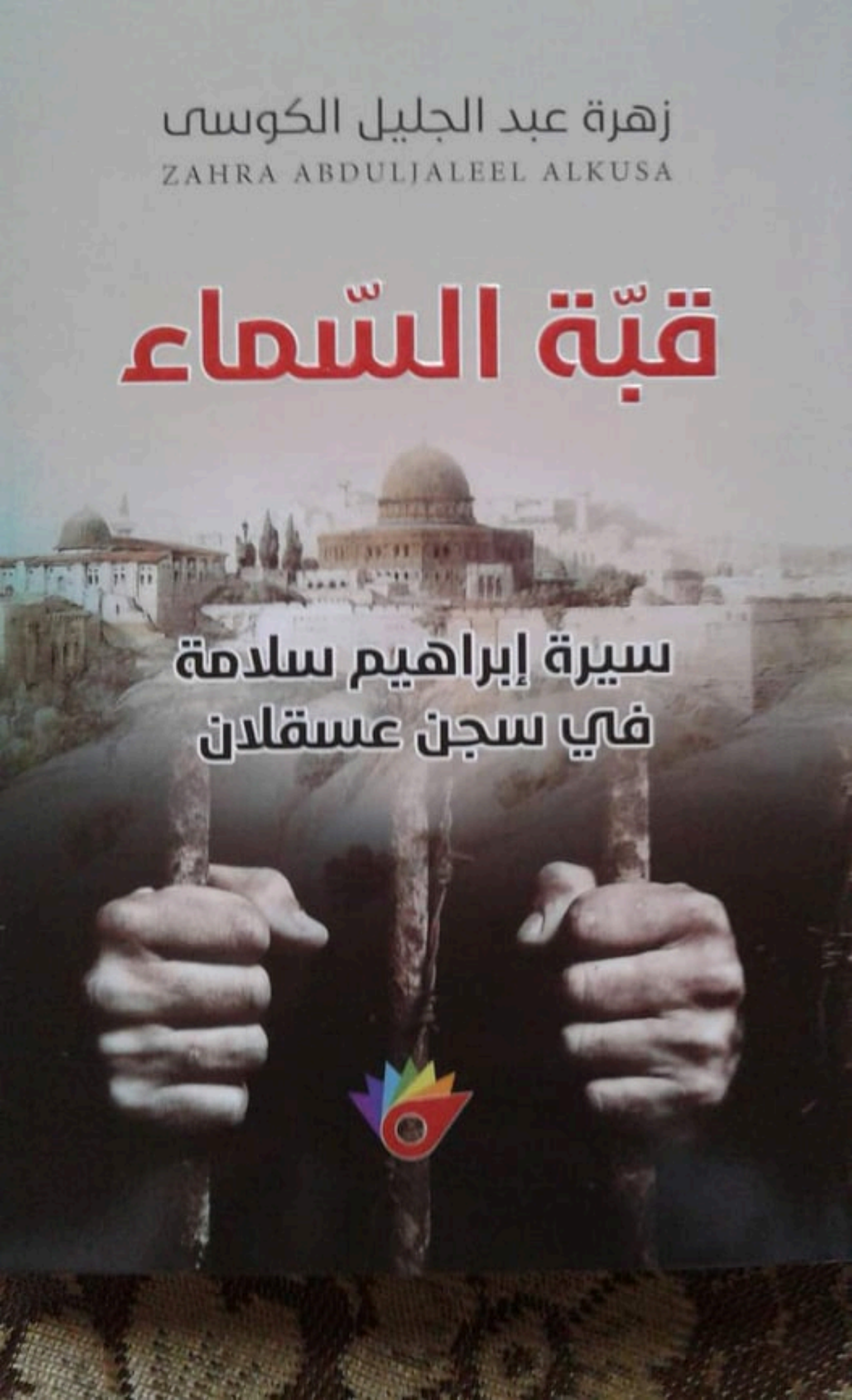

قبـة الســماء

قبــة السـمـاء

إعداد وتقديم
زهـرة الكوسـى

إهـداء

عندما سمعنا همس الملائكة
مع أصيل الرحيل
كتبنا سوية قصيدتنا
الأخيرة ..
كانت المدن موصدة
ومفاتيح الضوء ضائعة
بين ألحان الفقد
القادم..
غافلتني ..
لتفترش دمك، وتصلي
كان سجوداً واحداً
ربما يكفي للمغفرة..!!
إلى روحك الطيبه
الهائمة هناك
فوق جبال الكرمل
أقدم تمزقنا
ورذاذ الأيام ..

زهـرة
آذار / 2014

إضـــاءة

يتخيرنا.. تحت المقصلة، ونتخيره للحب، نكتبه في دفاتر صبية تنهض إلى تنور صباحها تطعم عشقها للنار،

تحمل خبز أيامنا إلينا،

توسوس بالنار، فتهبنا أسماءنا.

يمر بنا صبي، في يديه لؤلؤة فلسطين، وعلى شال أحلامه كنز إيمان حجو،

أغمض قلبي ليتسع للشذى، ويعرش على أسماء الشهداء، لم يخونوا الدلالة،

تراكيب الجملة الهدى.

الأسرى... مفاتيح صبري، المُحَرّرون، أغمّس ريشتي في محبرة الدمع المكتنز،

أبي عرب.. أبي أحمد... وآخرين على مفرق القيامة.

الأسرى... وراء قضبان الحكمة والمقاومة، يعلقون مفاتيح الدار في محفظة الذاكرة والجحيم.

الكلام الفلسطيني غسان كنفاني.. فواز عيد.. الماء ينزّ بياضاً وشجراً وعصافير ونسائم.

بَرد القنيطرة.. سمر الحلاج في مقهى بغداد اللازورديّ الرؤى، يمعن بردى في الكريات الحمر من عشقي في الطريق إلى مرمر الجرمق المعلق على ضفائر صفد حبيبتي.

وسواس الشعر أصدقائي ـ دفتر الكلمات العربية ـ ألون نفسي بأساهم، وأحتمي بالصهيل لنولد معاً.

من أنا؟ تستلف الكلماتُ قامةَ التين والزيتون، رحلة التعرف على جسدي ، أزهار الموت الحالبة موسيقاها البيضاء ، تستدرج روحي إلى مقصلة الغناء، في شارع ترمم مقبرته أحداق جنين، وحكايات الصبيّ الذي اشتق غرته من لازورد الشعر الأبديّ، من فحمة عينيه إكليل الميلاد، ومريمية الندى، وفي سنونو أحلامه يزرع غربة الدار، ويستسقي مزامير الرماد الهادئة.

مائدة الأرض رضاب العشبة الحانية على أشلاء كمثرى الماء، يفتقد الحنين إلى ثدي الشقاوة في كربلاء أيامه الماضيات، إنها الصوت المتدفق مدناً مهجورة العويل.

أستسلم أنا وهو لآخر الوهن الآدمي في غبار المراثي، ونشيّع بلوانا مع تغريد جسدينا القابعين في خندق الصلوات المبتلة بالرياحين.

تلك الأربعاء الغامضة خراب قصيدتي، ونهوض أصابعي من بيّارة الموسيقا إلى وسوسة الشاهدة الأولى لمطلع الشعر. خيول

المكان الزراعة صهيلها في رعد القصف، نحل ذاكرتي، وآخر أيقونات البحور، إسوارة البديع، رمانة البيان.

يلزمني مقهى أزينه بقبرات التفعيلة المستعصية على رواء النشيد، حتى لا أشرب قهوة الأعداء، ولا يقاسمني الجوع المحتمل دمعي مع حبّات القمح، يلزمني الصمت حتى لا تقهر حنجرتي الكلمات الغريبة واشتقاقات المفردات الضارة، فلا أتنفس في قامات الآخرين.

وسوسة الماء امتداد ضفتيّ إليك، يا وجه حبيبتي الصابر دون طلاء الجائزة، فازرعني حيث يرددني البحر في زرقته كل عبادة.

عبد الكريم عبد الرحيم
دمشق 2003/5/15

النشـــــأة

لقائي الأول دفعني إلى لقاءات دائمة حيث نقلني إلى عالم كنت أجهل تفاصيل الحياة فيه، في أمكنة مغلقة يحظر علينا الاقتراب منها أو الدخول إليها.

والإنسان خارج الجدران ينطلق في رحلاته في زمان محسوب ومكان معرّف ورحلة التأمل محكومة بهذا الحيّز، أما رحلة الأسير فهي تتعدى رحلة التأمل والقفز فوق ما هو موجود إلى خارج تلك الحدود، والتجاوزات المخالفة للضمير الساكن هي في محصلتها غير عادية، إذا تحدثنا عن وطن معرّف وعن مبادئ وقيم لا غرو في ذلك، لكن ليس الكل يمتلك لغة الترجمة بأسلحتها وأبعادها، فكيف إلى حقيقة ملموسة ومدركة؟

وإذا كانت «الشهادة» هي الترجمة الإبداعية الأبرز لحب الوطن فالاعتقال يقترب كثيراً منها أو يتلازم معها، ولأن الفعل أقوى الدلائل لتجسيد الفكرة فإني أبحث عن صيرورة المبدأ عند «إبراهيم سلامة» مثله مثل: عبد الرحيم محمود.. غسان كنفاني.. وأعتقد أنه رائد في سجنه وفي كلماته.. «شعراً وقصصاً ورواية» لم يكتف بالبندقية بل أضاف لها «الفكر وأشكال الفن الإبداعي».

وفي بحثي عن إنصافه.

أعتقد أنه جندي مجهول، أضع على جراحه بلسم وفاء، ربما أداوي شيئاً، وهو القروي من عائلة فقيرة ولد سنة /1943/ في قرية «أم الزينات» في جبل الكرمل، وهي مثل بقية القرى الفلسطينية، ناضلت وقدمت. و«إبراهيم سلامة» من جيل النكبة بامتياز ومن أوائل الذين حملوا وزر التحرير، والحاج «رجا» والده، رجل صلب وقاس، حدثتني قسمات وجهه قبل لسانه.

يقول عنه «إبراهيم»: لم أشعر يوماً بحبه لي، فهو يملك جَلَداً على كتم عواطفه، سألت أمي:

- هل لأبي قلب ؟

كانت تزجرني وتقول:

- إنه أحن الرجال.

وألوي دون أن أفهم هل هي تتحدث عنه كرجل لها أم عن أبٍ لي؟ ولكني لمست في وقت متأخر صحة ما قالته أمي، أصبت بتسمم ولا أدري كم من الأيام مرّت وأنا في غيبوبة، فتحت عيني.. سمعت أصوات نسوة.. أغلقت عيني وسمعت إحداهن تنادي أبي وتقول:

- الحمد لله إنه بخير .

لحظتها دخل في أذني قوله:

- يا رب اشْفِه..

وقفزت فرحاً ليس لأني شفيت بل لأني لمست حبه.

سألت الحاج، لماذا كان يقتني مسدسين في بيته المزروع على كفّ «أم الزينات» ؟ أجابني :

- واحد لي، وواحد لإبراهيم..

قلت :

- كان عمره ثلاث سنوات، كيف يحمل السلاح ؟

- حتى يعتاد رؤية السلاح واللعب به، وحين يكبر يستعمله مثل بقية الرجال.

انطباعي عن هذا العجوز لم يتغير، أتحدث عنه بصورة محايدة.. أحببت قسوة وجهه وانحناء قامته، شعرت أنه يحمل الوطن على منكبيه، وحين حاولت الدخول إلى عالمه وطفولة ابنه قال:

- عذبني بأسئلته ولم أتمكن من الإجابة ولا أملك مفردات تقنع ولم يكن الوقت يسمح لي.

- لماذا ؟

- منذ أن بدأت ثورة القسام وعمري آنذاك ستة عشر عاماً، عملت مع الثوار وابن عمي قاسم يعمل مع الكف الأسود، يكلفني بحمل الأسلحة وإعادتها، لكنهم لم يشركوني في عملهم حتى حادث اغتيال أحد العملاء ويدعى «صلاح الزعبي» وتمت عملية قتله في مقهى بحيفا.. و«مريم السخنيني» و«بدرية النجدي» حملتا السلاح.. حُكِمتْ الأخيرة بالسجن سبع سنوات وأنجبت طفلها داخل المعتقل.. وبعد عملية القتل اعتقل منفذوها الأربعة وهم «قاسم سلامة، محمد غنايم، سليم سمارة، وزعل الماضي» وأُعدموا يوم 1939/3/13.

بدأ العمل الجهادي ينحسر نتيجة القمع البريطاني وضغط الأنظمة العربية.

ويتابع بذاكرة قوية مستحضراً الأرض والأحداث إلى غرفته الصغيرة، وأشعر بعبق الأرض ينبعث من الجدران.. ويقول:

- بعد إعدام الأخوة حاولنا أن نشكل مجموعة بدلاً عنهم ولم نفلح، وفي سنة 1944 انتسبت إلى الشرطة وعملت حتى عام 1948، وخلال تلك الفترة كنا نقوم بتهريب الأسلحة، قدمت استقالتي، فكان علينا تسليم عهدتنا إلى مركز «أبو مسنسل – بين عكا وحيفا» وكان السائق ناصيف قد أفشى للمسؤول بأني شاركت بضرب مستعمرة الياجور.. وقادوني إلى ضابط في «الهاغانا» واتهموني بالتحريض والتعاون مع الثوار وجيش الإنقاذ، وحُكم تلك التهمة الإعدام، أخذوا ما لديّ ووضعوه في ظرف وقالوا:

- هذه أمانة ستصل لأصحابها.

ونزعوا الكوفية وكتفوني بعقالي وحاولوا وضع عصابة على عيني، قاومت ذلك لكن الضابط قال: لا أريدك أن ترى الموت.

- قلت: هذه لا تحجب الموت.

وتمر لحظات لا أعرف ما الذي يمنعهم من إطلاق النار، وأقرأ قصار سور القرآن الكريم وأنطق الشهادتين منتظراً الطلقات. وفجأة سحبوني إلى خارج الغرفة.. وضعوني في سيارة، وجلسوا على صدري.. وانطلقت بنا.. توقفت بعد فترة.. أخذوني بين الأشجار والأغصان تضرب وجهي ورأسي، ومن ثم أنزلوني إلى ملجأ..

تركوني على «تنكة» وبعد ساعة سألني الضابط إن كنت أريد شرب الماء..؟ وبعد أن رفضت صوّب فوّهة المسدس إلى رأسي وقال: حرام.. لازم تشرب قبل الموت.

لم يطلقوا النار.. أخرجوني من الملجأ.. اعتقدت أن إعدامي سيكون في مكان آخر.. والمفاجأة كانت أعادتي إلى مركز الشرطة، وهناك أعطاني قائد المركز أغراضي قائلاً: اذهب إلى الجحيم.

خرجتُ.. ركبتُ سيارة بوليس بعد أن أوقفها زميل لي.. وفي داخلها زميل آخر فهمت منه أنّ اليهود لا يقتلون من كان يعمل في الشرطة.

عدت إلى القرية وزميلي عاد إلى قرية «عسفية» وكنت قد اشتريت «بارودة» وعندما هاجم اليهود قريتنا حاولنا أن نصمد لكن لا ذخائر ولا إمداد وخرجنا من القرية إلى حرش «أم الفحم» وبقينا حتى الهدنة الثانية، وفي هذه الأثناء تسللت إلى القرية، أحضرت أبقاراً لي بعتها وتاجرت بالفحم، وكانت التجارة مربحة حتى صادرت القوات العراقية الفحم في قرية «عنين» قرب مدينة جنين، أصر شريكي على الذهاب لاسترجاع الفحم حاولت منعه لكنه قال:

- يا رجا المال يعادل الروح.

ذهب إلى هناك.. فسأله الضابط:

- أتحمل معلومات عن العدو؟

- يا سيدي: العدو أنتم أعرف به، وفي المعركة الأخيرة وصلتم إلى قرية «اللجون».

وهنا لطمه الضابط وقال:

- جئنا ندافع عنكم وأنت تطلب ثمن الفحم.

وقال لجنوده:

- خذوا هذا الخائن واجلدوه.

عاد شريكي مضروباً وبلا فحم وقال:

- يا رجا الجنود يحاربون بدلاً عنّا وتبرعت بالفحم للمجهود الحربي، لكن عليّ الطلاق ثلاثة لن أبقى هنا.

وعاد شريكي إلى «أم الزينات» وبقي هناك حتى وفاته، يومها اتجهت عكس اتجاهه قاصداً سورية.

* * *

وفي قرية «اليادودة» في محافظة درعا بدأت متاعبي، يأخذني العمل طيلة النهار... وأسئلة ولدي تؤرقني وكأنها تشكل اتهاما.. على سبيل المثال: لماذا لا نعود؟ كيف يمكن أن أُجيب عن هذا السؤال؟ كأنه يقول: لماذا تركتم الوطن؟ وأنا لم أكن قادراً على تبرير رحيلنا، فكيف لي أن أشرح طريقة عودتنا لطفل لم يدخل المدرسة بعد؟

وأضاف الحاج «رجا» متذكراً :

في الصف الأول الابتدائي وبعد العودة من المدرسة قال لي:

- ضربت ابن البيك .

ولم تكن جملته على بساطتها إلاّ إدخالي في دوامة السؤال.. أنا أعمل عند البيك وأحترمه، ويمكن أن يقذف بنا إلى المجهول، كيف لي أن أبرر فعلة ولدي؟ سألته:

- لماذا ضربته ؟

قال :

- غيّروا اسمي... وقالوا عني لاجئ..

وأضاف :

- يلّلا نروح على بلدنا.

هذا هو الطفل الخارج من دوامة الطرد إلى مساحة العار..

يا إلهي كيف تنقلنا الكلمات إلى فسحة روح طفل لم يقاتل ولم يُقتل.. لكنه يقتلك ألف مرّة بلا جواب.. تتجلى في شخصية الطفل إرادة التمرد والرفض.

روى لي إبراهيم حادثة قبل دخوله المدرسة.

وضعه أبوه عند شيخ ليتعلم القرآن.. الشيخ «فرحان» قام بضربه، ولمّا أخبر أباه أجبره على العودة، وفي اليوم التالي قال :

كسرت البيضة وأطعمت الكلاب رغيف الخبز، وهم أحقّ بهما من الشيخ، وعندما سألني الشيخ عن الرغيف والبيضة قلت: يا شيخ بيسلّم عليك أبوي ويقولّك إحنا فقراء..

علقوا رجليّ بالفلقة، وعندما تحررت قدماي حملت حذائي وهربت. أحضرت حجراً وضربت الشيخ «فرحان» فأطلقَ خلفي

أولاد «الكتّاب» ليلقوا القبض عليّ، لكن لم تكن لهم مصلحة لهم في ذلك.. وذهبت إلى قرية «الطرّة» في الأردن عند عمتي وعندها ارتحت وأكلت.. لكن زوجها أجبرني على العودة لأن أهلي يبحثون عني كما قال، وكان لا بد من اجتياز الحدود في الاتجاه المعاكس.

أمضيت ما تبقى من النهار، وعند صلاة العشاء تسللت إلى أمام غرفة الطين علّني أسمع شيئاً، وعندما لم أسمع اقتربت من الباب وقلت:

- يابا... أختك بتسلم عليك !!
- وين شفتها يا بن الكلب ؟
- كنت عندها ..
- ليش قطعّت الحدود ؟
- ولا أتعلّم عند الشيخ .

التفت إلى أمي وقال:

- يا خضرة... بلاش الولد يضيع..

أتأمله وأنا أحار بطفل يرفض الذل.. يرفض القهر ويختار الموت على حدود «سايكس بيكو»، لعمري أضع ألف إشارة على مستقبل تحمله الريح ويوازنه تمرد أصابع وأقدام أطفال لم يدخلوا المدرسة بعد.. لماذا يتمرد ذلك الجيل؟ ألأن الآباء لم يشفوا غليلهم ولم يجيبوا على أسئلتهم؟ أم أن النكبة تهرس كل جميل وتضغط على أطراف أصابعهم؟ لا يتوترون لأنهم التوتر ذاته.. والآباء يفتحون أفواههم للريح عندما يقذف الطفل في وجههم: لماذا تركتم أرضكم

تحملكم ريح خوفكم لنصبح لاجئين؟ أعتقد أنّ الأب المثل القادر والقوي سقط أمام هذا الجيل.. وبتعبير آخر لم يستطع الدفاع عن هزيمة وقعت في دواخلهم قبل أن تبدأ خطاهم على طريق الضياع..

* * *

الحوار مع المرأة الفلسطينية مشوب بالمخاطر والحذر، وأي خطر أكبر من خطر تعرض الأم للفجيعة بابنها! فهي متحفزة، قد لا تدرك مدلول السؤال، أو تغضب لمجرد الظن.

والأم المبعد ابنها في المعتقلات تتعلق مشاعرها مع قضبان الزنزانة، تحرس عيناها ظل النوافذ الموصدة، تعيش انتظاراً مضنياً يفتتها الحنين، وتجمعها تسابيح منتصف الليل، علّ السماء تمطر مع القادمين ابنها.

والحديث مع «أم إبراهيم» يقذفني إلى حقول ألغام لم أحسب حسابها، مكلومة وجرحها «إبراهيم» في المعتقل وخارجه.

تتفجر منابع الدمع عندما تسألها عن ابنها وتنطلق فوراً:

- يا حسرة قلبي عليه. عاش معتر وبيموت معتر.

وتصمت.. أشعر أنها تبتلع بقايا حديث مع حسرتها وأقول:

- ليش معتر يا خالة ؟

- هيك.. من وقت ما خلق لليوم ما شاف يوم هني.. وكل ما بشوفه بحس ما راح أشوفه تاني مرّة.. يا بنتي من يوم ما خرج من السجن وأنا أعد الدكاترة اللي بروح لعندهم.. دكتور عيون.. دكتور قلب.. وأعصاب.. وأنا بموت ألف مرّة.

أحمل صدق دموعها، أحاول العودة إلى طفولته..

سألت :

- كيف كانت طفولته ؟

- كثير الأسئلة.. عنيد.. مشاكس.. الخ.

- عمّ كان يسأل ؟

- سألنا مرّة، لماذا لا يشبهنا البقر والكلاب والقطط؟

ومن أسئلته أنه أراد معرفة طريقة رؤية الله.

وأكدت أمه ما قاله والده عن عناده.. وروت لي أنه كثيراً ما كان يأخذ الحليب ويسقي الجراء ويحملها إلى البيت، وكانت تحاول منعه عن الكلاب والاقتراب منها، وتقوم بتغسيله، وما إن تنتهي حتى يخرج ويتعرّى ويتمرغ في الوحل ويعود رافضاً الاستحمام.

لكني أقول: إن سلوكه منسجم مع رفضه وعدم قناعته بأوامرهم، وسألته عن ذلك، قال وهو يضحك:

- أحببت الكلاب وجراءها.. وفعلاً ألتقطها من الطرقات في تلك الفترة وأقوم بغسلها وإطعامها، ولم أفهم مبرراً لطردها.. أعتقد أنّ رفضهم لسلوكي ليس حرصاً عليّ.. ربما كان على الحليب.

وحول حادثة ضربه للأولاد قال:

- تلك الفترة من عمري كانت قاسية، أنا حالم بعودتي ورافض للنزوح، ولم أقبل الخيمة بديلاً عن بيت وحكايات جدتي، وأشعر أن

تغيير مكان طفولتي وتغير أقراني حتى تغير اسمي.. كل ذلك جعلني دائم التحفز.

فيما أستمع إليه أحدث نفسه بأنه: ليس الإنسان وحده هو الذي يألف المكان ويحبه.. بل إن المكان نفسه يشكل مصدر ثقة وإبداع، ويصبح عاقلاً يألف الإنسان نفسه، وهذه الجدلية تجعلنا ندرك نداء وطن وحنين أرض وشوق أمكنة، لكني أحسب أنّ «إبراهيم» أدرك النداء وانطلق.

* * *

القهـــر

يدخل الفلسطيني غربته، يغطي مساحة حلمه خياماً، تتبعثر في البلدان، ويشكل امتحاناً لنفسه ويرفض الآخرون هذا الامتحان، وتتداخل في أعماقه عاداته مع عادات الشعوب الأخرى، هو الذي تحوّل من مجسد لانتماء على حيز إلى لاجئ في أوطان عدّة، يجرفه الإقطاع عاملاً وأجيراً بعد أن كان مالكاً لأرض هو سيدها... ورحلة القهر تمتد، يحاول التأقلم المؤقت أو النسبي لفترة كان يعتقد أنها قصيرة ولم يخطر في باله يوم حمل همه ورحل أنها ستطول إلى هذا الحد.

انتظر شروق شمس من بيارة أو من بيدر، حمل عرق من تركوه أمانة، وبين الترقب والحلم تتآكل الأماني والأعصاب، والعيون تضيء عتمة الليل عبر دموعها، والآباء يحملون إثم الرحيل بعد أن أصبحوا في العراء، والأبناء تقسو قلوبهم ويأكلهم الغضب فهم بين قسوة الهجرة وتقصير الآباء، ويتسم جيل الأبناء بحدة الطباع، وساعدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية وعمّقت الجرح، ولكن لا بد من الحياة. أية حياة يختارها الأبناء ؟

لا بد للجيل الجديد من التعلم.

يلتحق «إبراهيم» بالمدرسة الرسمية في «اليادودة»، وفي الصف الرابع الابتدائي تُصاب عين والده، ليعمل «إبراهيم» في الزراعة وبيع المنتوج.

روى لي أنه حاول أن يحرث الأرض خلف ثورين، لم يقتنع الثوران به، يجرانه، يحدثان تخريباً وتموت شتلات البطيخ، ولكنه يُصر وينجح في ترويض الثورين.

وفي تلك السنة استأجر «طنبراً» يحمل البندورة.. وفي نهاية الموسم فك حبل الصناديق لافاً الحبل على يده.. وفجأة ينطلق البغل.. يسحبه.. ويخلّف كسرين على ساعده الأيمن.

ويحمل كسوره إلى الصف الخامس نهاية المرحلة الابتدائية.

ومن ذكرياته حادثة موت الشيخ «عبد الحفيظ» الذي أثّر فيه كثيراً.. وهذا الشيخ ضرير ويحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر الجاهلي، يربي طفلة بعد أن ماتت أمها ولا يتقاضى أجراً على تعليم الصغار.. ويعيش من التهريب، يأخذ الزجاج إلى الأردن ويعود بالسكر، ورجال الدرك يتغاضون عنه.

في موسم العكوب /1954/ وأثناء عودته من الأردن.. نزل عن الحمار، وسمع صوت نساء، فناداهن وسأل:

- هل أنتن من قرية «اليادودة»؟

ولما كان الجواب نعم. قال:

- أخبرن أهل القرية أني مت هنا !!

عادت الفتيات يتحدثن باستهجان واستغراب وبلا مبالاة.

وذهب نفر قليل من رجال القرية لاستطلاع الأمر، ذهب «إبراهيم» خلفهم، وعند الحد الفاصل بين سورية والأردن، توسد الشيخ كفيه وأسلم الروح.

قال لي: تلك الحادثة أوغلت في داخلي وزادتني قناعة باللجوء إلى الله، إذ كيف عرف أنه سيموت؟ وهل الكل يعرف؟ وما هي ماهية الموت؟ وهل هو مؤلم؟ لا أجد مفراً من الرضوخ لإرادة أقوى من أسئلتي.

* * *

علّمه أبوه أن يحمل الأمانة بشرف وهم يعملون في أرض البيك، يذهب نصف المحصول أو نصف ثمنه للأخير.

أجاب مرّة متسائلاً: لماذا عليه أن يحرث الأرض ويزرعها وفي النهاية لا يساوي محصولها لقمة العيش؟ في الوقت الذي يتذكر أنّ لهم أرضاً وكان كل محصولها لهم، وهنا لا أرض ولا مال، يدفع جهده وعرقه ويقبض صفير الريح.

حاولت أن أقلّب طيات ذاكرته، قلت محاولةً الوصول إلى أعمق نقطة، ترسب فيها أشياء ذات أهمية، قلت:

- أليس هذا العمل كبيراً على طفل في عمرك؟ وكيف احتملت ذلك؟

- معك حق، أعتقد بأن الأعمار لا تُحسب بعدد السنين، ويوم رحلنا وغادرنا أمكنة تخصنا وسرنا، كبرت عند كل منحدر عاماً، أنا

الذي دفن طفولته بين صبّار قريتنا، وحين أتلمس جسدي كل صباح أُدرك أنني أكبر مثل ليمونة عصيّة على العصر، أو اسمحي لي أن أعبّر بطريقة أخرى: أنا مثل وردة قُصفت من جذرها، والذي قصّها يدرك أسباب فعلته ومبرراته، لكنها ليست على استعداد لتقبُل ذلك، رغيف الخبز يصبح حلماً لطفل في حضن أمه، وكنت أغفو جائعاً، عليّ أن أصبر، أدركت أنّ الجوع مفروض علينا وأبتلع جوعي، ولا أرهق أهلي فوق إرهاقهم.. وأنتِ سيدتي استنتجي واكتبي الحكاية من جديد.

كيف سأبدأ حكاياتهم، الوقت حاضر أمامي ولسعات البرد أشعر بها والطريق المنحدرة بذاكرتهم كأنني اجتزتها، وعلى جنباتها أسئلتهم، والجواب الوحيد والدائم لذويهم «امشِ .. ولا تسأل».

هل حملتهم أقدامهم أم رعب أهلهم إلى خيام تمتد إلى الله؟ لكن هل مأساتهم بدأت لحظة نصب أعمدة الخيمة، أم لحظة احتواهم العراء؟

وأسجل.. بدأ ألم يكبر دون أن يكون مبرر وجوده مفهوماً، ولم تكن طفولتهم مهددة فقط بل وجودهم برمته، وهنا نفهم سبب العناد والمشاكسة والصلابة في شخصية «إبراهيم سلامة».. أعتقد أنه يمثل نموذجاً لجيله.

الدخان الكثيف الخارج من فمه يحجب رؤية ملامح وجهه وكأنه يخفي سطور ألم استوطن فيه والسنوات تتلبسه في اللحظة ذاتها، وبين

حيرتي في حركة وجهه ويديه، وشفتاه تمتصان بنهم بقايا سيجارة سألته:

- وبعد «اليادودة» و«درعا» أين كانت وجهة رحيلكم؟

- ربما لا يفيد الشرح كثيراً ولكن دعيني ألخص:

ودعت في هذا الرحيل مع الأرض أهلي.. قال أبي: ستسكن في بيت عمك في قرية جوبر ولا عليك إلاّ الدرس والنجاح وأبناء عمومتك هناك.. نزلت من الحافلة في باب الجابية ومن المرجة إلى جوبر القرية التي تعبرها قنوات كثيرة، على جنباتها يتطاول الحور، والمكان يمتلئ برائحة الورد الجوري، وعلى جانبي الطريق أشجار الجوز والمشمش... والسناجب تتسلقها وطيور مختلفة الألوان والأصوات تملأ المكان، أسير... أكبت توتري، خلت الحافلة عكازاً يتكئ الوجع عليه فيرجعه صريراً... أتذكر كلما أكلت الحافلة المسافة، حضن جدتي وحكاياتها ستكون بانتظاري، سألت نفسي: هل دمشق ستبتلع أحلامي؟

أدلق جسدي من الحافلة على الرصيف، أنام مع جدتي في غرفة صغيرة لأبدأ في اليوم التالي البحث عن مدرسة، وأخيراً سجلت في إعدادية صفد وهي التي شكلت حاضنة لجيلنا، وأشعر بامتنان للمعلمين كافة وبشكل خاص الأستاذ «خالد جرّاح» مربي صفي لعدّة سنوات، والأستاذ «عبد المجيد حنونة» معلم اللغة العربية لاعتنائه بلغتي ومخارج الحروف والإلقاء...

- في أي عام كان ذلك؟

- عام 1957.

- وبعد... هل تأثير المعلمين بالإضافة إلى المعاناة جعل منكم مناضلين، وكيف صرفتم النظر عن العمل العربي الرسمي، أو دعني أحاول أن أتلمس طريقاً آخر في بدايات حياتكم، وتحول الطريق أو صعوده بصرف النظر عن العوامل الخارجية هل يمكننا القول: إن الحاجة لتحقيق ذات كلية تكمن في تجسيد حلم واقع ملموس حتى لو لم يأت وطن ؟

- لماذا تجرحين وردة أو تحركين عمق ذاتي؟ أجزم أنكِ تحاولين «بخبث» نبش ما دفنته، وسأجيب على قدر فهمي وليس على قدر الأمنية لديكِ.

يا سيدتي سمعت عن ثورة الجزائر، وقرأت عن الوحدة وقبلها، ربما لم تسمعي عن شبه اتحاد ضمّ «سورية ومصر والأردن والسعودية» ولكن الأهم هو خروج الزعيم جمال عبد الناصر من بين الفقراء، يحمل على كتفيه آلام جنود مهزومين بأسلحتهم وقيادتهم قبل أن يدخلوا معركة، عبد الناصر يمدّ يده لسورية وتخرج أول دولة وحدة لتصبح الجمهورية العربية المتحدة، وتصبح مزار وأمل العرب وخاصة الفلسطينيين، هتفنا حتى بُحت أطراف المآذن وركضنا حفاة خلف أمل وحلم أصبح على راحة عبد الناصر... بعدها وأنا أعمل في «مخيم اليرموك» سمعت خبر الانفصال.. ألقيت ما بيدي، سرت إلى دمشق. هتفت للوحدة وعبد الناصر، وأمام مجلس الشعب مظاهرة أخرى تهتف للانفصال، ونسمع بلاغاً من الانفصاليين بوأد الوحدة..

لحظتها بكيت على شيء خلته طريقاً «لأم الزينات».. والانفصال أصبح حقيقة.

وفي أيلول عام 1962 كنت في معسكر الفتوة في الزبداني في عداد الكتيبة الخامسة، وأسمعنا قائد الكتيبة المرحوم «دريد شبيب» محاضرة عن الالتزام والانضباط، وفي اليوم السادس للمعسكر انقلب المعسكر واصطفت الكتائب في الساحة العامة، وألقى قائد المعسكر كلمة قصيرة وقدّم رئيس الجمهورية آنذاك «ناظم القدسي» لإلقاء كلمة لم نسمع شيئاً من هتافاتنا لصالح الوحدة.

وفي السنة التالية وفي يوم الثلاثاء 1963/3/5 خرجنا من الصف الثالث الثانوي العلمي وساعدت الأستاذ «علاء الدين عابدين» الذي كان يسير على عكاز لإصابة كاحله، تمنيت عليه أن يكون درس الكيمياء يوم الجمعة في الساعة السابعة والنصف صباحاً لنكسب نصف ساعة إضافية، تبسّم وهمس في أذني : قد لا يكون هناك درس، قلت:

- عسى خيراً .

- قال: نعم.

أدركت أن الانفصال في طريقه إلى وداع الحياة، وفعلاً كان يوم الجمعة 1963/3/8 ميلاد فجر آخر.

يا عزيزتي أسلمت أحلامي للمساءات الجميلة، والثانوية العامة تبتعد.. أقترب أكثر من الوجع، يعصرني وأحط على إبر تؤرق وخزاتها عمق الإنسانية.

وبعد 18 تموز 1963 جاءني الصديق المرحوم «عدنان أبو رجب» وبدأ نقاشاً حول المسألة الفلسطينية، وسألته:

- هل أنت في تنظيم سري ؟

حاول التهرب، لكن في النهاية كشف أوراقه، واجتمعنا في بيت الصديق «مأمون حيفاوي» وتشكلت الزمرة «66» وفق ما يلي :

1- إبراهيم سلامة.

2- رشاد أبو شاور.

3- سعود النجمي.

4- حفظي قاسم.

5- عدلي قاسم.

وأدهشني أنا ورفاقي «عدنان أبو رجب» ثقافة وإطلاعاً وتنفيذاً، هذا الصعلوك الذي ينافسني في فريق التعاون، وفريق «صخرة القدس» لكرة القدم.

خضعنا لفترة تمهيد، وتعلمنا مبادئ الجبهة، وقرأنا دراسات كثيرة عن فلسطين.

كان مشروع المسير بداية التدريب الجسدي والنفسي لاحتمال تدريب المستقبل، ونفذنا مشاريع أربعة: من القابون إلى صيدنايا، ومن

القابون إلى القطيفة، ومن سعسع إلى دمشق، ومن شركة الكابلات في صحنايا إلى المرجة، عبر طريق جديدة – القنيطرة، لنصبح زمرة عاملة في الفصيل التاسع.

* * *

توقف «إبراهيم» عن الحديث، وللمرّة الأولى أشعرني بارتياح لذكرياته، يمكن للبدايات أن تعيد صياغة التحوّل في حياة الناس.

أشرق وجهه لحظة أنهى كلامه أو لحظة سألته:

- ألا تذكر شيئاً عن الصعوبة، أو حادثة تملّك القهر منكم؟

- اسمعي: أثناء المسير إلى القطيفة، كان المطر غزيراً، أنا و «رشاد» على الطريق، شاهدنا رفيقين يجلسان تحت عريشة ناطور عنب، عند مشفى المجانين، جلسنا قليلاً وتابعنا. والمطر ما زال ينهمر بقوة، وقُبيل «طلوع الثنايا» توقف صهريج عارضاً أن نركب معه ونتقي المطر، رفضنا، اعتقد السائق أننا لا نحمل نقوداً فقال:

- لا أريد أجرة .

قلت :

- حسناً.. لا نريد الركوب !

أصرّ، وقال:

- يا عم، أنا أعمل لوجه الله...

قلت:

- لا نريد.. نريد أن نتمشى.

غضب السائق، وشتم كثيراً.. غادرنا، ونحن نضحك من مفارقة فهمه وعملنا.

أذكر في أحد الأيام كان يوم رأس السنة، ودعنا الأخ «قسام شحادة» على جسر نهر الأعوج في سعسع، انطلقنا.. كان المطر لا يتوقف، وبعد عشرين كيلو متراً بدأ «رشاد» بالتألم، كانت قدماه تنزان دماً لأن الحذاء الرياضي الذي ينتعله تمزق، وهنا، خلع الحذاء، فاقترحت أن يُكمل المشروع في مرّة أخرى ويركب أي سيارة عابرة، فوجئت بموقفه الرافض، وقال:

- لو كنا في الأرض المحتلة، هل ستجد سيارة؟

قلت :

- هذا موضوع آخر..

تابع سيره وقال:

- لِمَ التدريب إذاً ؟

تابعنا.. ألقى بثقل جسده على كتفي، وعند مدخل «دمشق» أصبح الوضع بعد عشر ساعات لا يحتمل.

تساءلت بيني وبين نفسي: هل زرعنا وحصدنا أو زُرعنا وحصدونا؟

* * *

أكملنا دورتنا التدريبية، كانت البداية في ساحة العباسيين..

ذهبت والتقيت بأبي سليمان «خالد كوسا» رحمه الله.. سرنا بين الأشجار، دخلنا بيتاً عرفنا أنهم يسمونه بيت «آمنة». لخص لنا المدرب بعد التعارف دورة تدريب وهي إعداد بدني مدتها من أربعة إلى خمسة شهور بواقع ثلاثة دروس أسبوعياً.. تبدأ بساعتين وتنتهي بأربع ساعات عدا المشاريع الأسبوعية، فهي كل يوم جمعة، من الصباح حتى المساء هنا.

بعد ذلك غيّرنا ملابسنا وبدأنا الجري في ساحة صغيرة وبعد انقضاء ساعة وربع الساعة بدأت التمارين الرياضية.. وهكذا تنتهي الحصة الأولى.

وننتقل إلى ممارسة تدريب لمدّة سنتين، أتقنا كل فنون القتال الخاص بحرب الأنصار.. وبعد ذلك إلى قسم العمليات.. وكنتُ في فرقة الشهيد «عبد اللطيف شرورو»، شاركت مع رفاق لي في أولى عملياتها.. وقدمت المجموعة أول شهيد هو الشهيد «خالد الأمين» في قرية «ديشوم»، ومن ثم شاركت في أكثر من دورية داخل الأرض المحتلة..

وفي سنة 1967 قبل الحرب، كُلفت مع الرفيق «أبو علي دعبول» بإيصال «سمير درويش» إلى داخل فلسطين، وهو ما قمنا به، واعتُقل سمير لاحقاً وكان الأسير الأول للجبهة الشعبية - القيادة العامة، حتى جاءت حرب حزيران... وما ترتب على نتائجها من جهد وإصرار على الدخول إلى فلسطين، وهكذا تركت مهمات تدريب وإعداد المقاتلين لألتحق بالداخل..

وبعد مضي شهرين تمت وحدة فلسطينية بين جبهة التحرير وشباب الثأر وأبطال العودة، تحت اسم «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»... وتشكلت قيادة عُرفت بالقيادة العامة، ونحن على أرض الوطن.. نفذنا تعليمات القيادة، وانضم لمجموعتي شباب من حركة القوميين العرب، ونُقلت من منطقة «بيت لحم» إلى «رام الله» في مهمة وكُلف نائبي بقيادة مجموعة لضرب مطار «اللد» مع خمسة رفاق.. ولسوء الحظ أو لحسنه اشتبكوا في منطقة جانب الحد الفاصل بين فلسطين 1948 والضفة الغربية، وعلى أثرها، استشهد الرفيق «صائب سويد»، وجُرح نائبي «أبو جابر»، ولم تكن خسائر العدو قليلة.. قُتل منهم (عقيد وستة جنود، وجُرح أحد عشر أحدهم ملازم) أحضروهم للشهادة أثناء المحاكمة، بعد أن أُلقي القبض عليّ لاحقاً.

وبعد العملية.. لاحق العدو بقية الرفاق.. واستشهد الرفيقان «كامل ناصر – إبراهيم نشوان» بعد أن فرّ الدليل.. وأُلقي القبض على البقية، وتم إلقاء القبض عليّ والرفيق «أبو جابر» و «محمد حسين عبد الغني» و «يوسف رجب الرضيع» وهما ضابطان كانا في عمل في مدينة «رام الله» كان ذلك يوم الجمعة 1967/2/15.

* * *

لم أجد ما يثير فضولي لكتابة تفاصيل التدريب ومشقاته، اخترت المختصر، وتثبيت المعالم لمسيرة أخالها ما زالت مستمرة، وأنا أجزم أنه يسامحني لحذفي الكثير الكثير مما قاله.. وربما أغفلت أسماء عن

قصد.. لأنني لا أجد مبرراً لقول كل التفاصيل، وفي السياق تذهب معالم، وتبقى الشواهد.

وهل «إبراهيم سلامة» تكرار.. أو نموذج لتجربة كلية؟! أجزم مع خصوصية علاقتي وعدم قناعته بأن ما يقوله هو محض تاريخ قد لا يفيد، أعتقد أنه النموذج الأكثر تعبيراً عن تجربة حركة أودعت في ذاتها إمكانية النصر حتى لو فشلت، وهذا حديث آخر..

وأسأل «إبراهيم سلامة» سؤالاً لا يحمل في معناه إلا تسجيل واقعة الأسر ومدلولها بالنسبة لهم، وإذا كان الاعتقال يحمل عباءة فضفاضة نفصلها نحن، وننسجها وفق تصورنا، فهل الاعتقال حالة على «خصوصيتها» تدفع بالأسير إلى ما هو أبعد أو أعمق من المتداول عن العدو وعلاقته وعلاقتهم «القسرية» معه؟

والسؤال :

- وماذا بعد أن وقعت بالأسر ؟

- لحظة مُحاولة رفع اليدين تتداخل في المخيلة القيم التي يحملها الإنسان والمبادئ التي يؤمن بها من جهة مع الصلف والعنجهية القادمة، ولماذا يرفع الإنسان يديه؟ هل لأن الخيارات ضاقت ولم يبق إلا هذا؟ ربما لا يستوعب الآخر إمكانية تحول الأشياء في لحظة بحث عن موت، وهو خيار ظل قائماً «ويصدق» كنا أربعة رجال «أبو جابر - مصاب - ويوسف ومحمد وأنا»، لحظة أوقفونا إلى الحائط حاولنا «محمد وأنا» الالتفاف على الجنود، وكان ضابطهم أسرع منّا، أطلق النار وأصاب جنديين و «محمد».

لم نفلح في إدراك الموت، أو لم يستطع الموت حصدنا، ربما إرادة الله حسمت الموقف..

- حتماً إرادة الله، وليست «ربما» في موقعها.

- أذكر أنّ العالم على اتساعه كان ثقب إبرة.

بهذه العبارة لخّص الموقف والحالة.

تتعدد المبادئ والقناعات لدى البشر، وكلّ يسلك طريقه في تحقيق وإشباع ذاك المبدأ وتلك القناعة، محتملاً كل المصاعب التي تعتريه إضافة إلى النتائج، وإن لم يكن بعضها متوقعاً لدى البعض لقصر النظر في الحسابات التي لا يمكن للمرء التكهن بها، إما لمعطيات ناقصة، أو لدخول عنصر المفاجأة الذي يحوّل النتائج إلى منحى غير متوقع وليس في الحسبان.

وطريق النضال للوصول إلى النصر له نتيجتان حتميتان: إما الشهادة أو الأسر، وربما كانت الشهادة طموح كل المناضلين وأهون الخيارات على الإطلاق.. لأن في الأسر عذاباً أكبر.. إذ يقف المناضل أمام عدوه وجهاً لوجه.. وأمام حقيقة نفسه.. وحقيقة الرفاق.. ويبدأ التحدي على كل الأصعدة.. الجسدية، الفكرية، الأخلاقية، وأهمها النفسية، وإذا كان الموت حتميٌ في كل تجلياته فإن موتاً آخر يختبئ تحت جلد المحققين، ويصبح التعذيب أقل طلباً من موتٍ أثناءه، والبشاعة تكمن في طريقة القتل والكيفية التي توصل إلى موت محقق، وأستعير من حديثه عن «عبد القادر – أبو الفحم» ببساطة وأثناء الإضراب، تم قتله بواسطة أنبوب لإدخال الحليب إلى المعدة، ولكن

إدخال الحليب مع الأنبوب إلى الرئة، هل يُعقل أن نقول بخطأ ما في مثل هذه الحالة؟ الصحيح أنّ القتل كان عملاً متعمداً.

هنا يسير الموت ملاصقاً روح وحياة كل المعتقلين، في كل لحظة يعانقون شرفاً ولا يصلون إلى الموت.

وهنا يتبادر إلى ذهني سؤال.. وأبادر:

- ما الأثر النفسي والجسدي على الأسير، نتيجة التعذيب والمعاملة القاسية؟

- ربما لا نستطيع الإحاطة بموضوع شائك كهذا، ولكن يمكن أن نحاول ملامسة الجوانب الأكثر إيلاماً، ويمكن القول إن الوحدة النفسية والجسدية في الإنسان، وتداخل المؤثرات في كل منهما لتصيب الآخر، إذا أخذنا الضرب العنيف قلنا إنه يؤدي إلى كدمات وجروح، يحملها الجسد بآثارها وآلامها لتتغلغل عميقاً في الوجدان وتضغط بشكل مباشر على الجملة العصبية، وتطرح تساؤلات عن مدى جدوى التعذيب وهل هذه الجروح تكسر الموقف الإنساني أو أنها تدخل في إضعاف وتقليل قدرة الاحتمال إلى أقل من القدرة الكامنة، وهذا يولد معادلة، طرفها الأول القيم، والطرف الآخر مقدار الاستعداد لصيانة هذه القيم على حساب الوحدة العضوية الإنسانية، يترافق ذلك مع معالجة نفسية تتمحور حول حماية الذات وإخراجها من المجموع الكلي وإضعاف القناعة بالمعادلة المذكورة وفق مقولات يحملها المثل الشعبي أو وفق ما يمكن أن يسمى حكمة العقلاء «لماذا لا تبوس اليد وتدعي عليها بالكسر؟»، أو «ألف عين تبكي ولا عيني».

ويُحاط الأسير بمجموعة من الإجراءات أهمها:

1- الحرمان من النوم والراحة قبل الاستجواب.

2- حفلة التعذيب، لإرهاق الجملة العصبية وخلخلة الاستقرار النفسي، والتوازن العصبي.

3- يضاف إلى هذا أصوات رفاق يصرخون من الألم والتعذيب.

كنا في بداية الأمر لا ندري من أين تأتي الأصوات، ونعتقد أنها في غرفة مجاورة للزنازين، ولكنها أصوات حقيقية سُجِّلت أثناء حفلة التعذيب، ويتم توزيعها وإعادتها خلف الزنازين المراد التحقيق مع نزلائها، وهذا الأسلوب كان يعطي عكس المراد.

- كيف ؟

- ببساطة يشعر الأسير أنه لم يصل بعد إلى درجة الموقف التراجيدي لرفيقه الآخر.

ويضيف «أبو عرب» شارداً، والألم يعتصر غضون وجهه:

- يمكن الإشارة إلى أساليب التعذيب التي دأب العدو على استعمالها، منها ما يسمى «الشبح»: وهي طريقة تعليق الذبيحة من قيد اليدين بقيد آخر لحديد معلق بالسقف، ونزع المقعد من تحت القدمين، أو ما يسمونه فتح الصدر بواسطة ربط اليد الأولى بشباك والأخرى بالباب وفتح الباب بشكل عكسي.

وأثر هذين الأسلوبين يأتي لاحقاً، ويتجلى بـ :

- تمزق في عضلات الجسم.

- فتح المفاصل وتركها لتبقى المفاصل مفتوحة، ويحمل الأسير تكلساً في مفاصله، وهم بذلك يحققون عللاً دائمة.

وأسوأ أنواع التعذيب ووفق أخلاقنا وتربيتنا ومعتقدنا هي: تلك التي تمس الأعضاء التناسلية، مثل:

الضغط على الخصيتين، أو إدخال أعواد كبريت في القضيب وإشعالها، واستعمال زجاجات لإدخالها في الشرج، أو استعمال ما يمكن أن يُسمى في معتقدهم «تفتيشاً» أو إدخال إصبع في الشرج وتحريكه بشكل دائري، وأحياناً استعمال عصا بلاستيكية مترافقة مع كلمات تليق بمستوى الفعل.

أما الشكل الأكثر بشاعة: إحضار شقيقة المعتقل أو أمه وتعريتها أمام شقيقها أو ابنها للضغط عليه، وهنا يصبح معلقاً بين الجحيم والجحيم، ويؤدي الاعتراف إلى ما يمكن أن نسميه «عقدة السقوط»، التي تشكل في محصلتها إنساناً مهزوماً، وتصبح القدرة على ترميمه صعبة للغاية، وفي بعض الأحيان يؤدي إلى انهيار نفسي وعصبي يدفع الأسير إلى الانتحار أمام ضمير جماعي يرهقه ولا يتخلص منه إلا بالعقاب الأكبر، وفي حالات أخرى يصبح السقوط مقدمة إلى الانخراط في مشاريع العدو.

- وماذا بالنسبة للعزل؟

- العزل في أمكنة خاصة لفترات طويلة، أسلوب يلجأ إليه العدو لتحقيق هدف ما يسميه تنقية السجن من «التفاح التالف»، وفي الوقت ذاته هو عقاب لمناضلين تميزوا في مواجهة الإدارة وقيادة المعتقلات.

والعزل الانفرادي أدى في كثير من الحالات وفق شروط العزل إلى أمراض مزمنة مثل الروماتيزم، والبواسير، ضعف البصر، وفي حالات قليلة أدى إلى اضطرابات عصبية ونفسية.

يصمت «إبراهيم سلامة».. أتركه يحتسي قهوته الباردة..

عندما أقف أمام ساقيه يأخذني تدفق الماء ويشدني اخضرار النباتات أو صفرة الأزهار.. إلى عالم يضج فرحاً وحياة ونماء، أما عندما أقف أمام أسير يتحول الماء إلى غليان.. والعشب تيبس، هل جف نبع قلبهم؟ أو هل تخثر الدم في عروقهم؟ الإنسان قد يحتمل جوعاً لحد بسيط.. أما أن يُقدم على الإضراب لمدّة أسابيع ويحمل كل ما يمكن أن يخلفه ذلك من أمراض أو يحمل نعشه في فمه، يلقيه أمام جلاديه، تلك مسألة لا يمكن الإحاطة بها أو توصيفها.

قال لي «أبو عرب» مرّة:

- الألم حالة لا يمكن أن يدركها الآخر، ولا يمكن للذي يعيشها وصفها.

أتصور إنها حقيقة ما قالوه.. الجنون هو الوجه الآخر للعقل، وأنا أجزم أنهما وجه واحد في حالات المناضلين.

وأسأله سؤال الهارب من توتر وفزع..

- متى يبدأ الأسير الهدوء والسكينة؟

- في دول العالم ينتهي التعامل مع المعتقلين والتحقيق والتعذيب بعد المحاكمة وإطلاق الحكم، إلا في إسرائيل.. فالوضع مفتوح باستمرار، ومحاولة قتل الأسير نفسياً وروحياً تبدأ من لحظة اعتقاله ولا تنتهي إلا بخروجه من المعتقل، أي أنه يدخل في مواجهة مستمرة.

وهنا يختلف وضع المواجهة، ويبدأ من لحظة الاعتقال شعور الأسير بالتحدي القائم على نفي إمكانية تحقق هدف العدو، وهذا يُدخل المناضل في سكينة صوفية بشكل ما، أو هي هدوء نفس وروح الناسك والمتعبد والمعتقد أن ثواباً دنيوياً وأجراً أخروياً ينتظرانه، والميل إلى ذكر الله يصبح عقيدة تدرأ الفعل وتقلل من الآثار العصبية والنفسية، يضاف إلى ذلك قدرة المناضل على الهروب من أسئلة والتوقف عند أسئلة أخرى.. ومحاولة إخراج المحقق عن طوره فيفقده القدرة على التركيز ويُكسب المناضل شعوراً بتفوق يؤدي إلى سكينة وهدوء، كل ذلك في إطار النسبية وليس الإطلاق.

- ورغم كل هذا التحدي والألم.. ما هي الآثار التي تتركها أخبار الأهل المفرحة والمحزنة؟

- يعيش المناضل يا عزيزتي إنسانيته، ويمارس طقساً خاصاً في علاقته بأهله الذين لا يراهم في فترة التوقيف، وينسج أحلاماً.. يزوّج شقيقته.. وتلد زوجة أخيه.. وأبناء عمومته يقاتلون.. وكذلك الحي والقرية.. يستحضرها بفرح ويزيح كآبة وحزن ووحشة انفراده، وتتغير أحلامه، وتتبدل تخيلاته، وينفي الكثير عندما يرى في أول زيارة أحداً من أهله، ويتشبث بصور رسمها مؤكداً أنّ أهله يخفون

الأخبار السيئة حتى لا يزعجوه، ويعتقد بصحة تخيله، ويقاطع المعلومات مع رفاق له من القرية نفسها أو الحي نفسه، وإذا ما فقد أحداً تحول الفقد والحسرة والألم إلى مقوّم من مقوّمات صموده، ويزداد حقداً وكرهاً تحت عنوان أنّ الإنسانية بمضمونها، والأنظمة تجيز المشاركة في تشييع الأب أو الأم، ولكنها هنا في منعها تعطي عاملاً إضافياً للصمود.

- ما أثر الاعتقال على الحس بمجموع الحواس؟

- من البديهي أن يخلق الزمن في ظروف محددة أنواعاً مختلفة من التأثيرات على مجموع الحواس، خذي النظر أولاً:

عندما لا يسرّح الأسيرنظره في الأفق ويمسح به الطبيعة، ولا يرى إلا جداراً على بعد مترين أو أكثر قليلاً، وسقفاً لا يرتفع إلا بنفس المسافة، وينكسر على الجدران الملساء ضوء مصباح، يخلق هذا إشكالية في الرؤية وأمراضاً عضوية في العين، طول المدّة يُنسي الجملة العصبية شكل شجرة ما أو يصبح ارتفاع الأبنية متساوياً تقريباً، أنا لم أميّز بعد الاعتقال ارتفاع بناء عن آخر، وبدأت أتعرّف من جديد على ورق الشجر.

كذلك السمع.. يتراجع الإحساس بتمييز أصوات متعددة، باختصار شديد البيئة تكيّف الإنسان وتطبعه، كما أنها تغيّر من عاداته وسلوكه واستجابته، حتى إن الإحساس بالوجع والمرض أقل عند

المناضل من غيره، ليس لأنه أقدر على التحمل، ولكن بحكم التعوّد والتعايش مع المرض بغياب العلاج.

- هل يمكن للسجين أن تكون له أحلامه الخاصة؟

هل يذوب الفرد في الكل مثل ملح في ماء ؟

وحتى لو كان ذلك صحيحاً يبقى طعم الملح ظاهراً، والحلم يتجسد شكله وفق معطيات حياة حاضرة، وزمان مُرّ، وفي المحصلة يشكل المناضل أحلامه الخاصة ببناء أسرة ولقاء بنت الجيران، وهل ما زالت على العهد؟ يفكر في بناء مستقبل طوباوي يرسم امرأة لا تشبه أحداً، يعدّل صورتها ويعدّل سلوكها، ويكبر الحلم، يربطه في مدينة أشبه ما تكون بالمدينة الفاضلة، وللحلم صفاؤه ومبرراته ومشروعيته، ومع كل ذلك لا يفصل حلمه عن واقع وطن يموت من أجله، فتحقيق الذات في الحلم مقدمة لتحقيق هذه الذات الفاعلة في العام، باختصار: يحلم بتحقيق ذاته ويحلم بتجسيد بطولة فاته أوانها.

- هل كان لاختلاف الانتماء التنظيمي والمستوى الثقافي أثر سلبي في علاقة المعتقلين ؟

- شكلت المنظمات الفلسطينية حاضنات للشباب الفلسطيني رغم أنها لا تضخ الأوكسجين دائماً، ونتيجة لاختلافها وتعددها، تعددت الانتماءات بين الشباب الفلسطيني بهدف النضال، كلٌّ اختار تنظيماً ما كضرورة لتحقيق حتمية، وهذا في الوقت نفسه شكل إرهاصاً، وعدم وحدة الأداة خلق أساليب متعددة واجتهادات لا تتطابق رغم الشعارات الكبيرة، ووفق هذا التقسيم بَنت التنظيمات قواعدها الحزبية والتنظيمية

وهي تتباين من تنظيم لآخر وفق إيديولوجية أو ولاء سياسي، وكان هذا التباين يصل حد التناحر على مستوى الساحة الفلسطينية.

أما المعتقل فكان الأتون الذي علينا أن ننصهر فيه، فكان المثقف والمتعلم ملزماً بتعليم وتثقيف الآخرين «تعليماً عادياً» وثقافة وطنية، ولم يفكر إلا بالانتماء إلى الوطن والمعتقل وحافظ المعتقلون في هذا الإطار على وحدتين: وحدة التنظيم ووحدة المعتقل.

والمناضل يبذل كل جهده لوحدة التنظيم الآخر، وحلّت التباينات على أنها تباينات وغلّب الصراع التناحري على التناقضات الثانوية.

وفي هذا الإطار استطاع المعتقلون إنشاء أول مجتمع تعاوني تضامني وتكافلي منذ أن نشأت حركة المقاومة في بداية العشرينات.

ولا أُبالغ إذا قلت إن المجتمع الاشتراكي المنشود تحقق في المعتقل الكل للفرد والفرد للمجموعة، هذا التكامل الإنساني لم نعشه في المجتمع ولا داخل التنظيم في الخارج.

ببساطة كيّفتنا الظروف وصهرنا الألم فأصبحنا مجتمعاً مثالياً.

- كيف يمكن أن نفهم علاقة السجّان بالسجين؟

- النقيضان نفسيهما في المكان، السجّان يحمل مفتاحاً ويملك القوّة والبطش، والآخر يملك الامتثال في الدخول إلى الغرفة والخروج، ويملك سلاح الإرادة فقط.

ومع طول المدّة يصبح السجّان أكثر حاجة للتعامل مع السجين، الأخير في الغرفة يملك الأصدقاء والحديث والفعل والانفعال والتأثر والتأثير في محيطه، أما السجّان فهو خلف قضبانهم يقضي نصف

وقتهم وكأنه محكوم بنصف مدّة حكمهم يلجأ للحديث معهم أو سؤالهم.. ومن هنا يبدأ كل منهما محاولة فهم الآخر، ولا أُبالغ إذا قلت إننا كثيراً ما تعاطف أحدنا مع الآخر المهاجر من العراق قسراً أو من المغرب أو من اليمن، وكثيراً ما أعرب بعضهم عن أسفه لعمله كسجّان. في الوقت ذاته كنا نرى هدفاً يتلخص في التأثير على عقلية هذا السجّان وضرب القيم التي تربى عليها، وكثيراً ما نجحنا في إدخال الشك وصولاً إلى اليقين بمشروعية نضالنا ووجودنا، يقابلها لا مشروعية لوجود غيرنا.

إضافة إلى اعتماد إدارة السجن إلى بث الحرب الأخلاقية بين الرفاق واتهام بعضهم بالشذوذ الجنسي لإثارة الفتنة بيننا.. الأمر الذي يجعلنا نثور لهذه النعرة القذرة حيث تلامس أخلاقياتنا العربية والدينية فما بالك بأخلاقنا النضالية، فالمناضل يحمل قيمة أخلاقية، وقيمة أمنية، وسقوط القيمة الأولى في داخله يؤدي إلى سقوط القيمة الثانية، وينتهي المناضل بصورة عفوية وتلقائية إلى مستنقع الجاسوسية، وهذه الحرب مرفوضة من أساسها.

* * *

- آلاف الأسئلة تولدها الإجابات، والطرقات والشعاب التي أخذتني بها، أوسع من سؤال وجواب، وماذا بعد..؟ تخلق ألف.. وماذا بعد..؟ أرجو أن تلخص بكلمات بعد هذا الزمن الطويل الفاصل بين الأحداث والتذكر.

- في البدء كان الوطن.. وفي النهاية يكون الوطن.. وبين البداية والنهاية إنسان يشعل روحه.. وربما تتوالى الأرواح، تلد اشتعالاً وقد لا يأتي من يضيف إلى الموت حقيقة أكبر.

هل كان الموت حتمياً؟ نعم..

هل كان التعذيب قدراً.؟ نعم..

وبين الأولى والثانية يبقى الاشتعال.. وكفى بي أنني اشتعلت.

أتأمل «أبو عرب» وقد انتابني شعور بالحقد على الواقع الذي وصل إليه هو وكثير من المعتقلين.. وسألت نفسي هذا الاشتعال أضاء درب مَنْ؟ بل هذا الاشتعال حصده مَنْ؟ لم يَجنِ «إبراهيم سلامة» وغيره سوى الأمراض.. والفقر.. وربما الحب الذي يشكل عزاءً، وكثيراً ما سمعته يردد: ليتني استشهدت.. أو ليتني بقيت في السجن أقاوم عدوي.. هذا أهون ألف مرّة من واقع أحياه بل ونحياه جميعاً.. نقاوم في الهواء..

وقبل غروب الشمس أرى الأفق مضرجاً باشتعالهم، لو أنهم شهب نراها وتنطفئ.. وأسأل عما يسمى محاكمة ؟

يتفرس وجهي كأنه يتعرف عليّ من جديد، ويحرك كعادته فنجان القهوة ويقول:

- مثلما أشرب القهوة شربت مقلباً..!! اعتقدت أننا انتهينا من وجع وإذا بالأوجاع تأتي تباعاً.

سأقول محاولاً استرجاع ذاكرتي من خلف قضبان المعتقلات، لم يكن مكان الاعتقال يسمح بعد انتهاء التحقيق براحة واعتقدت بأنّ

المكان الجديد مع اختلاطي بالمناضلين سيعطينا فسحة لطي صفحة المخابرات.

تم إجراء المسمى قانونياً بتوقيفي، وجُدد الإجراء، وفي نيسان عام 1968 مثلتُ أمام لجنة عسكرية، يطلقون عليها «محكمة» مؤلفة من ثلاثة ضباط، وضابط رابع يمثل ما يسمى الإدعاء، ومترجم بيننا، قرأ صغيرهم وريقات، وطلب كبيرهم منّا الإجابة، وعرض محامياً للدفاع عنّا.

ذكرتُ.. لست أدري أين.. أنّ المحامي حاول جاهداً أن يأخذ توكيلاً، وأكثر من ذلك عرض بعض المحامين خدماتهم، ولكن موقفي تلخص فيما يلي:

- توكيل محامٍ يعني اعترافاً صريحاً بالسلطة القائمة عبر الاعتراف بأن الضباط قضاة يمثلون قانوناً يحكمون به، ودستوراً لدولة هي ليست قائمة في عرفي.
- يعني هذا التوكيل بأني مذنب مقترف لجرمٍ بحق آخرين، وأنا لم أعتدي على آخرين، بل العكس، أنا أرد عدواناً.
- بتقديري ووفق قناعتي أنّ السجال لا يُحسم في قاعات التحقيق، ولو أنه شكل من أشكال المواجهة في صراع بين حق أمثل وباطل يفرض أنظمته.

وفي نهاية الأمر تبقى نتيجة أي صراع – محكومة ليس فقط بأسباب القوة والخلل في التوازن – بل أيضاً بالزمن، وإذا كان رهاني

صحيحاً أو مقنعاً فبالنهاية لا أعتقد بأن خسارة كم من الشهداء والكثير من الأسرى هي نهاية صراع أو حتى مرحلة، وهكذا أحمل مفاهيمي، ولكن هذه المرّة دون بندقية وحرية حركة مطلقة على أرض ساوت ذراتها أنجم السماء، وأثناء القراءة للوريقات والكلمات تخرج من فم صغيرهم، نظرت في جو القاعة المفعم بأنفاس جنود ربما لا يعرفون أهمية من في القفص.

وملخص ما يسمى الإدعاء قضايا كثيرة ومتفرعة:

آ - التسلل إلى فلسطين أكثر من مرّة.

ب- حمل سلاح دون ترخيص.

جـ- انتماء لتنظيم غير مشروع.

د - مسؤولية قيادية في تنظيم غير مشروع.

هـ- قتل ما يسمونه «إسرائيليين».

وأشياء أخرى ليست ذات أهمية، وبعد أن استمعت، قال كبيرهم:

- ماذا تقول.. أمذنب أم بريء ؟

- لست مذنباً .

- ألم تأتِ إلى هنا؟

- نعم .

- كيف أتيت ؟

وهنا أمسكت طرف حبل يقودني إلى النقطة التي أرغب في الوصول إليها، فقلت:

- إذا كنت أنتقل مثلاً من دمشق إلى عمان هل كان الموضوع يزعجك؟ وأنا إذا انتقلت من الضفة الشرقية إلى الغربية عابراً نهر الأردن أو ماراً على أحد الجسور، فهذا تماماً يساوي انتقالي من بلد عربي إلى آخر عربي أيضاً.

قال :

- ليس الأمر كذلك، أنت اجتزت حداً بين بلد عربي ودولتنا دون موافقتنا.

- هذا صحيح في حده الأول، أما الحد الثاني فلو كنت زائراً أو سائحاً قادماً إلى بلدكم يلزمني ما ذكرت، لكن أنا قادم إلى بلدي أنا، ولا تستطيع منعي من ممارسة حقي.

- إذاً أنت تُقر بالعبور، أي التسلل؟

- نعم، وأنا أعترف بذلك.

وهنا انفرجت أساريره، وأدركت أن خطأ ما في الترجمة قد وقع، وبادرت بالقول إن المترجم أخطأ أو أنه لا يتقن هذه المهمة، وأعدت ما قلت طالباً بترجمة للغة الإنكليزية.

تطوع محام اسمه «علي رافع» لذلك، وبعد ذلك اختلف الموقف تماماً، إذا تبين أنّ المترجم استعمل كلمة مذنب بدلاً من الاعتراف، وطلبت تغيير لغة التخاطب أو تغيير المترجم.

تشاوروا في ذلك وقرروا تغيير المترجم ورفعوا الجلسة.

الجلسة التالية قبل الإعلان عن دخولهم، تقدم مني شاب يافع وقال:

- أنا المترجم الجديد وأصلي عربي، أتقن اللغتين، لي رجاء أن تتحدثوا ببطء حتى تكون الترجمة أمينة بالكامل.

بدوري شكرته وأثنيت على موقفه، لحظات وتدخل هيئتهم ويبدؤون بالاستجواب، وأنا بدوري لن أطيل عليك الحديث، سألخص وقائع الجلسات التي استمرت زهاء عام.

انطلقوا من نهاية الجلسات السابقة وقرروا أنني مذنب بعبور الحدود دون إذن منهم، وأضافوا أنني تجولت حاملاً سلاحاً في الضفة الغربية دون إذن منهم، ولا بد أن أؤكد الحادثة، لكن بمفهوم عكسي تماماً وقلت:

- لا بد لإنسان احتلت أرضه بقوة السلاح أن يفعل شيئين معاً، الأول: العودة إلى المكان الذي أُخرج منه، ولمّا كانت العودة مرافقة للاعتداء عليّ وقتلي تولد السبب الثاني وهو حمل السلاح للدفاع عن وجودي وإمكانية المساهمة في طردكم، ولا أرى في المسألة ذنباً، بل أرى في المسألة واجباً مقدساً، ومشروعية حمل السلاح تنبع من مشروعية حقي في البقاء على أرضي وإلغاء الوجود الآخر الذي يحاول إلغاء اسمي وتاريخي.

ولك أن تخمني ردات الفعل من قبلهم.

- لا أريد أن أخمّن، ولكن كيف يمكن لاحتلال أن يترك مجالاً لأسير أن يناقش، ربما بدت المسألة نوعاً من المجازفة من قبلهم أو تحقيق ما يمكن أن نسميه عدالة ما.

- ليس الأمر كذلك، أحياناً يتورط الاحتلال، على سبيل المثال «إعلامهم» ركّز على قضية مقتل الجنود والضباط والإصابات الكثيرة، وضمن الحملة الإعلامية أرادوا أن يُظهروا للرأي العام أن لا جريمة دون عقاب، وهؤلاء «المخربون» يحاكمون، وفي تلك البرهة الممنوحة للمناضل إمكانية التعبير ويصبح الإعلام وسيلة ذات نفع، والمسألة الأهم تكمن في إصرار المناضل على قول ما يريد، طبعاً لن يقابل هذا بالابتسامات أو بالورود، أنت في معركة «أعتقد بأنها جزء مهم في الصراع بين إرادتين، كل منهما تنفي الأخرى»، وأضيفي أنهم رفعوا الجلسة لشهر، وخلال هذا الشهر، حضر إلى المعتقل الحاكم العسكري لمدينة الخليل، وبحث بين المعتقلين عن ثلاثة، الصديق «خلف نصّار» وعني، والصديق «خلف – أبو الوفا» قصير القامة، فقال الحاكم العسكري:

- اعتقدت بأنك أضخم وأطول من ذلك بكثير، ولكن هل أنت هو، وأنا أمام من دوّخنا ؟

فأجاب أبو الوفا :

- نعم أنا «والحجر اللي ما بعجبك بفجك».

قال الحاكم:

- متر وأربعون سنتيمتر وأربعون كيلو غرام، لكن لنا حساب.

والتفت إليّ الحاكم وقال:

- أنت، هل تعتقد أنك بطل ؟.

أجبت بابتسامة ناعمة، وبسخرية ما خرجت الكلمات:

- عذراً من الأبطال، لا لست بطلاً بعد، البطل من استشهد.

قال مغتاظاً:

- إذاً من أنت ؟

- مواطن حاول أن يقوم بواجبه، لكن لم يصل به الأمر إلى النهاية، ربما جاء الأمر في زمن آخر.

وهنا تراقص شارباه وقال:

- سنرى ما أنت فاعل بعد المحاكمة.

خرج مخلِّفاً وراءه شعوراً لديّ بعظمة الفلسطيني حتى لو كان طوله متراً !!

ويوم الجلسة المقررة، وقفت والرفاق ندافع عن شيء يصل إلى قدسية الحياة نفسها أو إلى قدسية كل معتقدات البشرية. وأذكر عندما سألني كبيرهم حول انتمائي إلى منظمة «تخريبية» قلت:

- هل أنت بولوني ؟

قال:

- أنا يهودي .

قلت:

- لا بأس، ولكن عندما قدمت إلى هنا، نزلت من باخرة في ميناء «حيفا» وهناك هل شاهدت عتالاً عربياً ؟

أجاب بحنق:

- كل العتالين عرب.

- لا بأس، سؤال هل أحدهم قال لك: أهلاً وسهلاً؟ إذا فعل ذلك فلك الحق باتهامي، ولكن لا تجعلني أفعل ما فعله ذاك العتال .

- وما فعل ؟

- ما زال بصاقه يدور في الهواء ..

ضرب الطاولة، رفع الجلسة للنطق بالحكم..

وأثناء الاستراحة، قال ضابط:

- من أراد الخروج إلى الحمّام فلتأتوا واحداً واحداً.

أوكل لجنديين جرّي إلى الحمّام، تجاوزا الحمّام إلى مخرج يفضي إلى مكان إرسال إذاعة القدس في رام الله، حاولا إخراجي وكنت أعرف المنطقة تماماً، ومداخل ومخارج المكان. رفضت.. وقاومت.. وصرخت.. وعدت إلى قاعة «المحكمة» وعندما حضروا قلت لهم:

- أنا معتقل.. يمكنكم إعدامي، أما أن تحاولوا إخراجي إلى ساحة وإطلاق النار عليّ بحجة الهروب، أعتقد أن في المسألة جبناً.

قال كبيرهم :

- سأكلف الشرطة بالتحقيق، والآن أسمح لكم بكلمة أخيرة.

قلت له:

- نحن جميعاً.. ؟

قاطعني وقال:

- تحدث عن نفسك.

قلت:

- أنا مرتاح الضمير، ولو أنّ مشروعي لم يكتمل، لكن الزمن لن يتوقف هنا..

وكذلك بقية الرفاق.. استعمل كل منهم نفس اللغة والمدلول.. فتلا كبيرهم الأحكام.

وكان وصفه لي في غاية البذاءة، إذ قرن اسمي «بالمنحط والسافل» ولا أعتقد بأنّ أناساً منذ «هولاكو» إلى يوم القيامة يصفون أوصافهم، بالرغم من شعوري بالاعتزاز، خالجني إحساس بقرف يملؤه وجودهم.. وهكذا حملت ساقيّ لأقف مرّة أخرى على قبّة السماء.

* * *

بدأت ولادة جديدة في حياة «إبراهيم»..

وبدأ نضالاً جديداً..

يصعب على المرء تخيّل خلق الكون واستحالة أن يدرك تفاصيل تحولات في ذهن وعقلية إنسان اتسع وجدانه، يحتضن أوجاعه المتنقلة من خلية لأخرى، أو أن يُجاري كريّات دمه وهي تدور، تحمل حياةً يريدها أن تستمر، والأعصاب تبقى إنسانية ليست حديدية، هل القيد غير القيد؟ والألم غير الألم؟ نعم... القيد والألم يصنعان معجزة خلق آخر، والرابض خلف القضبان متوثب، متحفز لخلق جديد.. وما الجديد إلا صنع معجزة الثبات ومعجزة التحوّل إلى قنبلة تنفجر في وجه السجّان في كل حين.

السنة الأولى للاعتقال... تمر وكأن الأرض «طلّقت» مدارها والقمر «عاد كالعرجون القديم»، لا شيء سوى الذكريات ولا إنجاز إلا الثبات.

الكون يشمل كل شيء، يتسع، لكن الزنزانة لا تنتمي للكون أو للأرض إنها المكان الخاص الذي ينتمي إليه المعتقل.

قال لي:

- دعك من تكرار الوجع بعد أن خرجت من الزنازين، الصديق «عبد الله العجرمي» وضعوه في غرفة رقم (3)، وأنا في الغرفة رقم (4).. أدخل.. أضع البطانيات، أتفرس في وجوه النزلاء، لا أعرف أحداً، وخلال لحظات اقترب رجل مني محاولاً منحي سيجارة.. رفضت.. جلست.. تتكاثر الأيدي الممدودة إليّ واحدة تحمل تفاحة.. وأخرى برتقالة، وأنا أحرّك أصابعي رافضاً، تقدّم مني شاب وقال:

- ألست فلاناً ؟

- قلت: نعم .

- قال: ولِمَ ترفض أخذ حتى سيجارة؟

أجبت النزلاء كافة: اجلسوا وحدثوني عن هذا النعيم، وكذلك التهم الموجهة إليكم، ولنبدأ بجمع ما تملكون، كل فرد يضع ما يملك في الزاوية، وبعد ذلك أسمع منكم.

فتصوري يا عزيزتي أنّ أفضلهم كان لصاً!! هذا الخليط من الجنائيين عليّ أن أتعامل معهم وأن أغيّرهم.. في المساء.. أسمعتهم

محاضرة عن الأخلاق والوطن.. وبيّنت لهم الضرر الكبير الذي ألحقوه بالوطن، وقلت بصورة واضحة: «إنهم يساعدون الاحتلال، ذاك يقتل ويدمر وهم يسرقون من المواطن ويعتدون على حرماته». وبعد أسبوع بدأ كلٌّ منهم يعبّر عن ندمه وقناعته بسوء فعلته، كان عليّ أن أمسك بهم، واقلب معادلة العدو التي تتلخص في محاولة إذلالي مع هؤلاء المجرمين، تحولوا إلى أداة طيعة في يدي...

وبعد أيام علّقوا قصاصات ورق على صدورنا بلغتهم وقالوا:

- إن الحاكم العسكري سيزور المعتقل، وسينظر في استرحامات المساجين.

وقبل الزيارة المقررة طلبت منهم أن لا يتحدث أحدهم أو يطلب استرحاماً أو أي شيء من هذا القبيل، وكذلك فعل الصديق «العجرمي».

وعندما دخلوا الغرفة ليعلنوا عن قدوم سيدهم، تفرّس نائبه في سحناتنا، ووقف أمامي.. حتى دخل سيدهم.. فقال الأخير:

- كيف حالكم ؟

فلم يجبه أحد.

ومرّ أمامهم واحداً واحداً.. علّ أحدهم يقول شيئاً حتى وصل أمامي، فخاطب نائبه بلغتهم، فقال نائبه، واضعاً يده على كتفي ومحركاً الورقة التي على صدري:

- أنت قائد في الخارج وليس هنا.

أجبت :

- ليس مهما المكان، المهم وجودي.

ويتابع إبراهيم:

- هل تعلمين ما فعل ؟

- وكيف لي أن أعرف ؟

صفعني وخرج ..

أغلقوا الباب وعاد بعد لحظات محاولاً الحديث معي، أشحت بوجهي، لكنه قال:

- أرجوك لا تبتسم ..

وأنا ما زلت معلقاً بين روحي وابتساماتي، حتى الابتسامة تكون سلاحاً وغيظاً.

جاء مدير المعتقل لينقلني إلى غرفة أخرى وجدت فيها الرفاق.. ولا أحد من اللصوص، لكن مدير المعتقل قال:

- أنتم تفاح فاسد، لذا يجب أن تبقوا سوياً حتى لا تُفسدوا الآخرين.

سأروي لكِ قصة لص صغير يسكن بالقرب من «بير زيت» وهو «نوري». سرق حماراً من القرية، ولصغر سنّه حكمه القاضي العربي ستة أشهر، وهذا الشاب خرج ولم يمضِ أسبوع إلاّ وأحضروه، والتهمة الآن ضرب ضابط شرطة بحجر في رأسه، وحُكم سنة ونصف، وربما الكثيرون ممن كانوا سلكوا الطريق ذاته.

يصمت.. وهو يقبّل سيجارته.. ويسافر خلف القضبان.. أتأمله.. أرى أن للفدائي سحراً مثل سحر الهوى.. يمر على الحقل فتنحني

السنابل.. وتضمّد أنفاسه شقوق الأرض.. كيف لا ودمه المسجّى في شرايينه رهن انبعاث الشمس من غفوتها، ولي أن أُدرك تحوّل اللصوص إلى مناضلين إذا مرّ طيف فدائي يحمل الوطن.

رغم هذا التفجير الكامن بداخله.. يتحول في السجن «للحاجة التي هي أم الاختراع» إلى حلاّق.. ويروي القصة ضاحكاً فيقول:

وأنا عند النزلاء في الغرفة رقم (4)، جاء سجّان يسأل:

- من منكم يعرف قصّ الشعر؟

فلم يجبه أحد، فقال:

- ستين واحد بالسجن وما حدا بيحلق ؟

فقلت له:

- إذا أردت فأنا أعرف؟

أقاطعه باسمة:

- وهل تعرف حقاً ؟

- لا.. لا أعرف، وقبل أن تسألي، وقتها خمّنت أن ألتقي بالرفاق عندما أقص لهم شعر رؤوسهم، فأخرجوني للساحة ووضعوا مقصاً وآلة حلاقة ومشطاً، وكان أول زبون «تيسير قبعة».

جلس وبدأت ألعب بشعره وقال:

- هل أنت حلاّق !!

- قلت: من أجل أن أراك.

تبادلنا المعلومات، وخرج من تحت يدي «مثل خروف العيد».

الزبون الثاني كان الدكتور «أسعد عبد الرحمن»، وهو شاب جميل وشعره جميل أيضاً، وخرج من تحت يديّ يحمل أبشع رأس، لكن فعلنا ما يجب فعله.

أما الزبون الثالث: كان «علي العواوده» لم يحظ بقصة شعر عصرية، إذ جاء الضابط، شاهد المنظر وصرخ:

- ماذا تفعل هنا ؟

- قلت: أقص شعر الشباب.

- من الحمار اللي جابك ؟

- الشاويش .

- أبوك على أبو الشاويش.

وهكذا حرموا الشباب من حلاقة عصرية، وحرموني من متعة اللقاء..

أتدخل بكل استغراب:

- لماذا المجازفة ؟

- أولاً: أريد طمأنة الشباب على عدم ورود ذكر أي علاقة لي معهم في التحقيقات.

ثانياً : أن يطمئنوا من يرونه بذلك.

ثالثاً: أن نطمئن نحن على أنهم في مكان صحيح.

سأنهي لك السنة الأولى للاعتقال بحديث عن الإضراب.. وهو الإضراب الأخير في رام الله.

كنا في الإضراب منتصف رمضان، يعني أنّ سنة كاملة مرّت على اعتقالنا، وكما تعلمين هناك من يصوم ومن يفطر، فجاء إضراب

الفاطرين في الصباح، وكنّا قلّة، فحاولت إدارة المعتقل إجبارنا على فك الإضراب..

بدؤوا بالأضعف واستطاعوا أن يجبروا الأغلبية على فك الإضراب، وتم عزلنا أنا والرفاق «فايز العبويني - راغب أبو راس - المرحوم حسام بامية» وضعونا في زنزانة واحدة، واعتقدوا بأنّ كسرنا سهل، ولكن عند الإفطار امتنع المعتقلون الصائمون عن تناول الطعام، وعليّ أن أسجلّ أنّ المعتقلين «الفدائيين» والآخرين أعلنوا الإضراب عن الطعام، وحاولت الإدارة التفاوض معهم، لكنهم رفضوا، وبعد صلاة العشاء جاء ضابط، فتح الزنزانة، طلب مني والرفيق «راغب أبو راس» الخروج.

خرجنا إلى خارج المعتقل، أدخلونا إلى غرفة، فوجدنا الصديق «عبد الله العجرمي» ومدير المعتقل، فطلب منّا الجلوس وقال:

- حرام أن تفعلوا ذلك، الصائمون رفضوا وأعلنوا الإضراب، وأنا أريد أن أنتهي من هذا الموضوع، التفت إلى الصديق «العجرمي» وقال له:

- ما رأيك ؟

أجاب الصديق:

- قلت لك نحن لن نتناول طعامنا قبلهم وطلباتهم هي طلباتنا نفسها.

التفت المدير إلى «راغب» وقال:

- وماذا تريد يا راغب؟

- أنا لا أعرف إلاّ الانضباط، وأمامك اثنان إذا قال أحدهم لي مُتْ سأفعل.

ضحك المدير وقال لي:

- يثبت التهمة عليك.

- ومن قال إنّي بريء منها ؟

- أجاب: حسناً، دعوني أذهب إلى البيت، وكل طلباتكم مُجابة، لا من أجلكم.. لكن من أجل شهر الصيام.

والتفت إلى الضابط كي يعيدنا، ونفك الإضراب، وهكذا كان.

عند دخولنا المعتقل، طلبت من الضابط إخراج الرفاق من الزنزانة، تناولنا طعامنا، لم يطل المقام بنا.. وتم ترحيلنا إلى معتقل نابلس.

ولكِ حكاية أخرى بدأت في 1968/12/13.

* * *

من السهل أن نروي حكاية، لكن من المستحيل أن نحياها أو نتقمص آلامها، مثل الولادة وآلام المخاض لها طرفان: الطبيب، المرأة وأوجاعها، لا يمكن أن يدرك الطبيب حجم المعاناة والآلام التي تكابدها المرأة في تلك اللحظة، يشعر بفرحها لحظة بكاء الطفل، ويدرك استكانتها ويفهم كل شيء لكنه لا يصل إلى دواخلها، وهي لا تقدر أن تجد الكلمات لشرح معاناتها ويبقى الطرفان كل يفصله عن الآخر ألم المخاض، ويجمع بينهما فرح الولادة.. وهكذا أحاول أن

ألتقط لحظات يغيم فيها نظر «إبراهيم سلامة» وألتقط تغضن وجهه ما يقربني أكثر من وجعه ولست إلاّ محاررة لتلك الأوجاع.

أدخل في السنة التالية:

السنة الثانية للاعتقال.

يقول:

ينادي ويدنس أسماءنا في فمه، نحمل أحكامنا ونخطو..

نخرج من البوابة التي دخلنا منها، وقفت والسجان ينهرني أن تقدّم، لكني نظرت، كانت السماء حُبلى بغيوم.. والأرض بساط أبيض يوم دخلتُ كانت الأرض بيضاء، والسماء ماطرة.. لكن الزمن يدور.. ومن البوابة ذاتها يخرجون، ميناء «حيفا» ما زال قادراً على حملهم وما زلنا قادرين على طردهم، قال ضابط:

- ليش بتتطلّع ؟

- معجب بالسماء..!!

- حتماً سنرميك في مكان ما بعد أن تموت في السجن.

استعملت السلاح ذاته، ابتسامة عريضة أثارت حنقه وقلت على الفور:

- سيمر زمن أُعاود قتالكم.

- قال: بالمشمش .

- قلت: أتراهن ؟

- على ماذا ؟

- بمـا أنـك يهـودي لـيكن الرهـان علـى النقـود، أدفـع لـك ثلاثـين ديناراً.

- موافق.

مـد يـده يصـافحني مضـيفاً بلغـتهم مـا معنـاه «كـلام رجـال»، ضغطت على شفتي ربما سروراً وربما تهكماً وسخرية، وربمـا ارتسم جبل من غضب على شفتي.

يوم التبادل في معتقل «مجدو» التقيت بهذا الضـابط وكـان برتبـة مقدم، ويدعى «أمير» ، طالبته بدفع قيمة الرهان، أجاب:

- بعد أحد عشر عاماً تتذكر؟

- الزمن لا يُميت حقاً .

- عندما نصل «جينيف» وأنت حي.

في «جنيف» عندما فكّوا قيودي، وقبل أن أضـع قدمي علـى سلّم النزول، التفتُ إليه طالباً قيمة الرهان، ضربني ضابط وتدحرجت على سلّم الطائرة.

أسأله متعجبة :

- لِمَ تريد المال من اليهودي ؟

يضحك بمكر ويقول:

- فـي المرّة الأولـى أصـبتُ ثلاثـة عصـافير بحجـر واحـد، الأول: عدم اكتراثي لأحكامهم، الثاني: إصراري على الاستمرار في النضال،

الثالث: قلب مفاهيم المخاطب وتغيير سلوكه ونمط تفكيره لحظة سماعه بالنقود، وفي المرّة الثانية أردت التأكيد على حقيقتين:

الأولى: أنّي ما زلت في طريقي.

الثانية: إغاظة هؤلاء الضباط بطرح حقيقة أنّي حرّ ولم تنفع أحكامهم في احتجاز عقلي، وأيضاً إمكانية النضال، لقد حققت بابتسامة ورصانة ما كنت أنويه... لكن لنعد إلى ما كنت أرويه لك من نقلي إلى سجن نابلس.

يومها حملونا. اجتازت سيارة المعتقلين منخفضاً ومن ثم بدأت الصعود، وهكذا تئن عند كل منعطف تتوقف، أحياناً يتبادلون أحاديث وتستمر الرحلة بعدها، الوقت يشير إلى الظهيرة، ونحن في غرفة مدخل معتقل «نابلس».

تبادلنا الأحاديث وبعض الفكاهات حتى دخل سجّان ضخم يحمل شارة مساعد أول وبيده عصا، تحدث بلهجة مصرية، قال:

- أنا أبو محمد، هل سمعتم باسمي؟

قلت :

- من أين لك أن تُسمى باسم «نبيّنا»؟ الأفضل أن تقول: أنا «ألبرت العزّام» .

- أنت «أبو عرب»؟

- هل سمعت بهذا الاسم ؟

- أنا بانتظارك.. هنا «نابلس» وليس «رام الله»، هناك كنتم تلعبون، أما هنا «راح تمشي عالعجين وما تلخبطه».

- سنرى !!

طلبوا من الصائمين أن يخرجوا لغرف الصوم، فلم يخرج أحد، وأخرجونا إلى غرفة رقم (8)، جاء بعد قليل عريف يدعى «فايز» وقال:

- اخرجوا لتناول الطعام.

- أين سنأكل ؟

- في غرفة (10).

- ولماذا أنتم وضعتمونا هنا؟ سنأكل هنا فقط.

غاب وأحضر «حلتين» مكشوفتين، فرفضت أخذ الطعام بهذه الطريقة، لكنه أصر على موقفه بدفع «الحلتين»، وطلبت منه إبلاغ مديره برفضنا لهذه الطريقة وإلاّ سنعلن الإضراب. انصرف، بعد قليل أخذوا الطعام وأعادوه لنا بعد أن غطوا «الحلتين»، وقال «ألبرت»:

- حظك حلو، المدير متسامح.

- لا بأس، المهم أن تفهموا أننا بشر.

في المساء لفت نظري تجمعات على أساس «مناطق»، فألقيت محاضرة حول الوطن ووحدته، وطلبت إلغاء زوايا الانتماء للمدينة أو حتى لتنظيم بعينه، ونظمت توزيع الغرفة، التي ضمت ستين مناضلاً.

في اليوم التالي تقدّم مني الصديق «يعقوب دوّاني»، وذكّرني بنفسه وأنّه تخرّج من معسكر لنا، فحذرته من ذلك، ضحك وقال:

- سأُحاكم بتهم غيرها، أعتقد أنّ حكمي لن يقل عن أحكامكم، ولكن ما أريده منك أن تعالج موضع الخلافات بين «فتح» و«الشعبية» الكل متحفز للصدام.

فقلت:

- كيف لي أن أقابل «أبو علي شاهين» و «تيسير قبعة»؟

قال :

- سأرسل لك من يؤمن انتقالك إلى غرفة (3).

وبعد نصف ساعة جاء المرحوم «نصر الشخشير»، وقال للشرطي:

- هذا الشاب يريد الذهاب إلى الحلاق.

فتح الشرطي الباب وخرجت، وعند الحلاق تعارفنا وقال:

- ستمكث هنا ساعة حتى يتم إبدال السجّان، وتذهب إلى غرفة (3)، وهذا الشاب يذهب إلى غرفة (8).

قام الحلاّق بواجبه خلال ساعة، غادرت، والشاب «البديل» دخل إلى غرفة (8) وذهب الشرطي معي إلى غرفة (3) وهكذا أصبحت في المكان المراد وصوله.

انفردنا «يعقوب» وأنا، وشرح لي ظروف المعتقل وتسهيل الإدارة لدخول الأدوات الحادة «سكاكين، شفرات» بواسطة «كنافة» أو «حلويات» لا تقوم بتفتيشها لأنها تدرك أنها ستستعمل ضد بعضنا البعض، ومع غياب الوعي الوطني ونمو العصبوية حصلت مواجهات، وبتنا نخشى من مواجهة شاملة.

وفي الليل، اجتمعنا في زاوية الغرفة «أبو علي شاهين، تيسير قبعة، يعقوب ديواني، وأنا»، وطرحت في الاجتماع ضرورة توجيه نداء باسم «فتح» و«الشعبية» و«الفصائل الأخرى» للمعتقلين، يدعوهم للالتزام بمواجهة العدو فقط والالتحام كتنظيم واحد يحكم أفراده العمل المخلص من أجل فلسطين، وأنّ كل التنظيمات هي عناوين صغيرة في لوحة وطن هو فلسطين، وكذلك عقدنا اجتماعاً للرفاق والأخوة في الغرفة وكان عددهم «ثمانين»، وفي نهاية الاجتماع طلب «أبو علي تيسير» من الذين يملكون أدوات حادة تسليمها لي، وأذكر أنني ويعقوب قمنا بإتلاف الأدوات الحادة وكذلك طلبنا من الغرف الأخرى فعل ذلك.

وفي اليوم التالي عدت إلى غرفتي ولكن عن طريق الحمّام هذه المرّة.. مرَّ يومان، جاء المدير إلى غرفتي مهدداً متوعداً بالويل والثبور وعظائم الأمور، قلت:

- ولِمَ كل انفعالك ؟

- أنت تعلم، حرّكت الماء الساكن، لا أريد للمعتقل حركة، والباقي أنت تعرفه.

تجاهلت تماماً ما يرمي إليه رغم إدراكي أنه يعرف ما قمنا به، لم يمضِ أسبوع على وجودي إلاّ وحملتُ أشيائي وكذلك رفاقي، وقبل أن أصعد درجات سيارة النقل، قال لي مدير المعتقل:

- تأكد أنك تفاحة فاسدة، أرني ما ستفعل في المعتقل الآخر؟

وفي ساحة معتقل «بيت ليد» استقبلنا المدير وضابط يدعى «حبّة» والأخير هذا أخذ يدي وسلمني لعريف طالباً إليه الحذر مني

وأن ينبه كل سجّان السجانين الآخرين إلى خطورتي، وهكذا يسبقني اسمي وكأنه كُتب على جبين فضاء بلدي، ولا أُخفيك كم كان يشعرني بالرضا وأحياناً بالاعتزاز والفخر.

وفي قسم «جيم» وفي الغرفة (5) حشرونا، وبعد يومين تماماً قررنا الإضراب عن الطعام، والمعتقل مقسوم إلى ثلاثة أقسام:

آ و ب : يضمان مائة وتسعين معتقلاً، أحكامهم تتراوح بين سنة وخمس سنوات.

ج : قسمنا يضم ثلاثين معتقلاً، تتراوح الأحكام من عشرين سنة إلى المؤبد.

وقبل أن نعلن الإضراب، أرسلنا للقسمين «آ - ب» بضرورة المشاركة في الإضراب، لو أمكن أسبوعاً فقط.

فأجاب المرحوم «نزيه قورة» : إنهم على استعداد. فأعلنا الإضراب.

وفي اليوم الثالث للإضراب، تساقط «مائة وتسعون» من المعتقلين و«عشرة» من قسمنا المبجل، ولم يكترث أحد بنا.

وفي اليوم السادس جاء المدير، فاعتقدنا أنه جاء للتفاوض لكنه دخل إلى الغرفة الأولى ليشرف على إصلاح صنبور الماء.

يومها بقي عدد المضربين ثمانية أشخاص، نقلنا أسفنا وحزننا على من سقط إلى اليوم السابع، واتفقنا على فك الإضراب بطريقة تضمن لنا الحد الأدنى من احترام أنفسنا، طلبنا الضابط المناوب، فطلب أن يقابله واحد منّا، فذهبت، وكان الضابط «حبّة» الذي قال:

- متى ستأكلون ؟

- عندما تحققون مطالبنا.

- انس!! المدير يعدكم بعد فك الإضراب بالنظر في طلباتكم.

عدت وللمرّة الأولى أشعر بهزيمة، لم يكن سببها إلاّ نحن، تدارسنا الموقف، وقررنا إبلاغ الإدارة أننا نفك الإضراب لإعطاء الإدارة مهلة للتفكير وإلاّ سنعاود الإضراب.

يضحك «إبراهيم سلامة» ويده على جبينه، تسند رأسه خوفاً من سقوطه على الطاولة، يتدحرج إلى تلك اللحظات التي حملت غصّة وضعتها في وجدانه، وأخمّن أنه يشعر بأسىً كبير كون ذاك اليوم لم يخوله الوقوف على قبّة السماء.

وهو ساهم ينظر إلى جبل أجرد قبالتنا، قلت:

- أكمل ؟

أدار طرفه إليّ وقال:

- حتماً سنكمل ولي أمل ألاّ تكون الكلمات على شاكلة هذا الجبل.

- أرجو أن تقول ما يجب أن يُقال وَدَعْ الأجيال تحكم على خصوبة ما تقوله.

- إذاً سأضغط ذاكرتي..

بعد أيام حضر إلى قسم «ج» ضابط مع المدير، وأشار الأخير إلينا قائلاً:

- هؤلاء جميعاً..

أجاب الآخر:

- هناك سيعلمون من نحن..

خرجا، أدركنا أنّ في الأمر شيئاً، ولم نستطع تخمين ماهية هذا الشيء حتى جاء يوم الثلاثاء 1969/2/11 فأخرجونا إلى سيارة النقل. قبل أن نصعد، خاطبنا ضابط السيارة، وهو نفسه السيد «كوباني» الذي كان مديراً مؤقتاً لسجن «رام الله» قائلاً:

- أنتم «عرصات»، وبينكم ثلاثة هم «الأعرص».

أمسك بقميصي وقال:

- أليس كذلك ؟

أجبته:

- ما ترونه سيئاً هو الأجود عندنا.

تحركت بنا السيارة، قطعت مسافة بين «بيت ليد» و«عسقلان»، كنّا قد سمعنا أنّ معتقلاً جديداً سيفتتح، وها نحن داخله.

حشرونا الساعة الحادية عشرة في غرفة صغيرة، وبدؤوا بإخراجنا واحداً تلو الآخر..

وهنا أشرح لكِ ما فعلوا..

يخرج المناضل ليجد نفسه مركزاً لدائرة من السجّانين، يسأله نائب المدير عن اسمه ولا يصحو إلاّ تحت الماء، هل هو أجاب أم ماذا حصل؟ لا يدري إلاّ والضرب يُعيده إلى الماء. ويقوم بقص شعره

وشاربيه، يعود إلينا.. لا نعرف هويته، وخلاصة القول علينا الإجابة بكلمة سيدي، وختم الكلام بكلمة سيدي.

وأنا أذكر أنّ ضلعاً لي كُسِرَ وفُتحت شفتي، وانزلق «عظم الكوع» في يدي، وعلينا أن ننتعل أحذية ملائمة، مثلاً: حذائي نمرة (44) عليّ انتعال حذاء نمرة (40) وكذلك الملابس.

وضعوا قسماً منّا في الحبس الانفرادي، وقسماً آخر في غرفة (11 و12) على أمل إبدالنا، وكان علينا أن نحتمل ثلاث وجبات تعذيب بعد الطعام، وخلال ثلاثة أيّام حاول الانتحار «وليم نصّار» و «شوقي شحرور»، مما جعل الإدارة تخفف الإجراءات القمعية، وطرحنا في تلك الفترة فكرة الإضراب.

كان رأي الشباب أنّ الحديث عن الإضراب مبكر وعلينا التريث، وتمّ بعد أيام إسقاط طائرة «سابينا»، وفي يوم الخميس أعطونا شفرات للحلاقة، وكنت أقوم بحلاقة ذقن الصديق «حافظ أبو عباية»، فجاء الضابط المناوب وأخذني ، وضعوني في سيارة جيب، جلس جنديان على صدري، وانطلقت السيارة، وبعد مدّة توقفت.. طلبوا مني شفرة حلاقة نسيتها في جيبي، واستمروا لأجد نفسي في معتقل «صرفند»..

وضعوني أنا والرفيق أحمد خليفة مع الكلاب، وبعد ساعة تقريباً أخذوني فوجدت ضابطاً يرحب بي، أعرفه من أيّام التحقيق.

طلب إليّ الجلوس وطلب شاياً، وقدّم لي سيجارة، رفضت عرضه، وأضاف:

- أنت رجل مثقف وقائد، وتفهم أصول الحرب، فهل يجوز قتل الأطفال والنساء وخطف الطائرات وتفجيرها..

- قلت له: مَنْ فعل ذلك؟

- قال: جماعتك؟

- قلت: الصواب ما فعلوا.

غضب، نهض.. وصفعني وقال:

- أنا اللي بقول إنك فهمان..

- الأفضل أن تبحث عن قتلكم للأطفال، لا عن رد فعلنا المشروع.

عند هذا الحدّ طلب أن يُعيدوني إلى حظيرة الكلاب، ولا أدري كيف أوصلوني إلى هناك، لكن مجاورة الكلاب خيرٌ من رؤية وجوههم.

كان همهم أن يسجلوا تناقضاً بين المعتقلين وعمل فصائل المقاومة ويذيعوا ذلك بوسائل الإعلام، كنوع من الحرب الإعلامية والنفسية أحياناً.

بعد ثلاثة أيّام أعادوني إلى «عسقلان»، ووضعوني في زنزانة انفرادية تحمل الرقم (13)، وكان أبو محمد حافظ «حافظ قاسم» الأخ والصديق وبعض الرفاق. مكثنا أياماً نتحدث من تحت الأبواب، نطمئن على بعضنا، بعد أسبوع نمتُ في الظهيرة واستفقت فلم يكن أي منهم في الزنازين.. وبقيت وحيداً لا أرى إلاّ وجه السجّان عند وجبة الطعام والضرب.

جاورتني على النافذة خلف القضبان «يمامة صغيرة»... أحدثها شهراً كاملاً حتى خيّل إليّ أنها تشاركني وحدتي، وتفهم لغتي، وإذا تأخرت ينتابني قلق، وبعد شهر حاولت ملامسة ريش ذيلها، فغادرت ولم تعد...

كنتُ برماً بحماقتي وحزيناً على الفقد، وأسفاً على تدخلي في خصوصية تعنيها، هل للحمام أيضاً شعور كبرياء؟ أجزم أنّ لها كذلك شعوراً وإلاّ ما اختفت.

ويمرّ مندوب الصليب الأحمر يسألني:

- منذ متى أنت هنا؟

- لا أدري.. أكثر من شهر، أو أربعون يوماً، لا أدري..

- أنت محكوم أليس كذلك؟

- نعم .

- لك جدّ قلق عليك، ونحن سنقوم بطمأنته..

التفتَ إلى مدير السجن يسأله عن مبرر وجودي بالحبس الانفرادي.

ويسألني فجأة:

- تصوري أن إجابتهم كانت «لا نعرف».. فما رأيك ؟

أجيبه :

- شيء طبيعي أن يجيبوا كذلك أليسوا يهوداً..؟

ويتابع :

التفت إليّ وقال:

- إذا هم لا يعرفون، فربما أنت تعرف..

قلت :

- نعم، أنا حضرت إلى هنا بمحض إرادتي.

تبسّم.. وأومأ برأسه وانصرف.

وبعد ساعة جاء ضابط الأمن وقال:

- أنت موجود هنا عقاباً لسببين:

الأول: رفضك التماس خروجك من السيد المدير.

الثاني: توصية من الأمن، بعقابك.

قلت له:

- شكراً لكم، لكن لماذا لم تقولوا لمندوب الصليب الأحمر ذلك؟

- الصليب الأحمر والأبيض والأكحل خليهم ينفعوك ..

كان هذا الضابط قد عرض عليّ حلاً مفاده «إذا حضر المدير وسألك: كيف حالك؟ فقل: يا سيدي، أنا مريض، أرجوك أخرجني من هنا» فوافقت.

وبعد أيام.. جاء المدير.. دخل إلى الزنزانة، وقال:

- كيف حالك ؟

- الحمد لله!! ولم أضف حرفاً واحداً.

خرج المدير غاضباً، وعاد إليّ ضابط الأمن، وبعض السجّانين، ضربوني وقالوا:

- تتحدّى سيدك المدير؟

- قلت: هل كلمة الحمد لله، تعني التحدي؟ أنا فهمت الرسالة، لذلك وافقت، لن أنحني، ولن أذل نفسي لو بقيت إلى الأبد.

وبعد أسبوع من مغادرة مندوب الصليب، أخرجوني للاغتسال وحلاقة الذقن، ونقلوني من المنفردة إلى غرفة تحمل رقم (13).

التقينا مع الرفاق والأخوة وهنا توصلنا إلى شبه اتفاق لمواجهة غطرسة الإدارة، كان المدير يهودياً من أصل مغربي يدعى «ألبرت حيوت»، ونائبه يدعى «هايمن» ألماني يدّعي أنه نجا من معتقلات النازية.

في الشهر الخامس عدّلت الإدارة من طريقة تعاملها وأصبح الطعام أفضل والخطاب أقل خشونة، لكنها بدأت بتوزيع الغرف ونقل بعض المعتقلين إلى غرف أخرى محاولة نسف الوشائج في الغرفة الواحدة، وخشية أن يشكل التفاهم نوعاً من التحدي لها، وأغرقت عدد المعتقلين «المحكومين» بأربعة أضعاف الموقوفين الإداريين واستمرت في لعبة «شهر قسوة وشهر آخر لين» مما أربكنا كثيراً وأصبحت محاولة إقناع الرفاق كافة يشوبها الحذر، وتراهن بعض المجموعات على إمكانية تحسن الوضع مع مرور الوقت، لكننا تمسكنا بخطتنا وصرفنا النظر عن الاقتناع بداية وعلى إمكانية التواصل مع الخارج والمعتقلات الأخرى مهمة لا بد من وجودها.

يمر العام ونحن بين التجميع وإبعاد الإدارة وتغييرها المتلاحق لعددنا وأماكن تواجدنا وصعوبة الاتصال.

هنا أتدخل لسؤاله:

- هذا التغيير الدائم ألم يسبب لك وللرفاق توتراً نفسياً من نوع خاص؟

- هذا التغيير كان له وجه آخر، وجه إيجابي إذ إن نقل بعض الرفاق إلى هذا المكان أو ذاك أتاح فرصة نقل – على الأقل - الأفكار والاستعداد للمواجهة، على سبيل المثال:

الغرفة (13) كانت تضم (21) رفيقاً، وهم من الصف الأول والسابقون زمنياً في الاعتقال، عندما تم توزيعهم يمكن القول إن الغرف التي انتقلوا إليها حملت سمات وأفكار مجموع الرفاق، أي ساعدت الإدارة في نشر الوعي والتصميم على المواجهة.

الواقع أننا حملنا في نفوسنا بعضاً من الوجع، وكذلك ما يمكن أن نسميه تباطؤاً أو تساهلاً في تمرير عام دون مواجهة حقيقية، ولعبت الإدارة دوراً في ملاحقة أفكارنا وتوجهاتنا لتأجيل إذا لم يكن تعطيل إعلان الإضراب، إذ لجأت إلى أسلوبين:

الأول: تتبع أنفاس من تسميهم قيادة عن طريق بعض ضعاف النفوس.

الثاني: بث الإحباط عن طريق إمكانية القمع بقوّة، وتعمّدت كسر الروح المعنوية لبعض الرفاق وهم بيننا، يتأوهون، يتحسرون على كسور أو فقد غشاء الطبل، هذا باختصار شديد.

أسأل :

- في لهب هذه المواجع وهذه الضغوط الفكرية والنفسية، هل كنتم تعيشون أو تغرقون في هذا الألم أم كانت لكم بعض اللحظات التي تهربون إليها للترويح عن أنفسكم ؟

- من قال غير ذلك.. كنا نعقد اجتماعات في المساء، نكرسها للمحاضرات والتحريض وجلسات للمسابقات، وأخرى للترفيه وأخرى للتعريف بالبلدان الفلسطينية، يقدّم كل رفيق عن بلده كل صغيرة وكبيرة حتى إن وُجد لها اسم كنعاني قديم وتغير مع الزمن، يمكن القول أننا بتنا نعرف عن القرى الفلسطينية الشيء الكثير وربما عدد شهدائها ومحصول القمح فيها، كذلك كنا نلجأ إلى الحوار المفتوح، لم يكن الوقت عبئاً بقدر ما كان وعاءً نسبح فيه لتحقيق غايات وطنية وإنسانية واجتماعية.

قلت:

- تحدثت عن هذه السنة ولم تقل شيئاً يتسم بالطرافة؟

يضحك ويقول:

- كان هناك سجّان يدعو «جورنو» وهو من أصل تونسي قصير القامة جداً، ويحاول أن يضرب طوال القامة، فكان يقفز عن الأرض لتصل يده إلى وجهي، وكذلك بقية الرفاق، ويوم كنت في غرفة (9) جاء سجّان يدعى «فؤاد» تعرّف إليّ بعد أن سأل الرفيق «تحسين حلبي» عني، والغرفة المذكورة في الطابع العلوي جهة الشرق، فأخرجني «فؤاد» هذا لوجبة «ضرب» وبعد ساعة نقلوني إلى غرفة (23). وعند تغيير السجّانين، جاء «جورنو» فأشاروا

إشارة خفية إليّ، وبعد ربع ساعة أخرجوا الرفيق «خالد عبد الرحيم» وبعد وجبة الضرب عاد، استمر الحال فترة، أُضرب أنا يومين متتاليين، و«خالد» يوماً.

فقال لي خالد:

- لماذا نُضرب أنا وأنت فقط ؟

- قلت: احمد الله، أنت مرّة واحدة وأنا مرّتان.

- قال: لنسألهم.

- قلت: ولِمَ ؟

- أجاب: إذاً أنت تعرف، اليوم دوري.

وبعد أن أخرجوه يا عزيزتي، وهو أطول مني قليلاً ، عاد دون أن يُضرب، وأخرجوني، و«جورنو» يشتمني، ويحمّلني مسؤولية الخطأ.

أسأله:

- أي خطأ يا صديقي؟

- يا سيدتي، هم يضربونه ظناً منهم أنه «أبو عرب» أي أنا، وعند سؤالهم عن ذنبه، قال له:

- أبو عرب مش عارف شو عامل؟

أجابهم:

- أنا مش «أبو عرب» .

مستغربة أسأله:

- ولماذا يضربونك أنت؟

- هذا السجّان المدعو «فؤاد»، كان جندياً في حرس الحدود، وأصيب في اشتباك معنا، كان شاهداً في المحكمة، وعندما ترك الخدمة عمل سجّاناً، فكان ينتقم مني.

قلت لخالد:

- هكذا وببساطة تنكر وتعترف.

أجاب وهو يضحك:

- إذاً أنت تعرف لِمَ يضربوننا، والآن تحمّل وزر اسمك.

كانت هذه الحادثة بداية اتخاذ قرار بضرب السجّان «فؤاد».

في الغرفة (23)، بحكم العزل عن بقية المعتقل، لها ساحة صغيرة مغلقة، علينا الخروج إليها نصف ساعة في اليوم، وغير مسموح لمعتقلين آخرين الاقتراب منها أو احتكاك أيٍ منّا بالآخرين.

في المساء طلبت من الشباب أن يحتملوا نتيجة ضربي «لفؤاد»، إذ إنّ قانونهم يعاقب بكسر يد الضارب ومعاقبة زملائه في الغرفة، فكان أول المؤيدين المرحوم «عبد القادر أبو الفحم» وبقية الرفاق أيدوا خطوتي.

وفي اليوم التالي طلبت من رفيق يدعى «فوزي الزعبي» أن يحاول عدم السماح «لفؤاد» بإغلاق الباب حتى أخرج إلى الساحة الصغيرة.

اتفقت معه، إذا كان الغداء «أرزاً» أن يقول: قليل.. وهكذا سارت الأمور.

فقال «فؤاد»:

- طول عمركم جوعانين.

فحملت الطنجرة واندفعت إلى الساحة الصغيرة فهرب إلى ساحة المعتقل، والسجّان الآخر ترك باب الساحة الصغيرة مفتوحاً وهرب هو الآخر، وكلٌّ منهما ينفخ في صافرته، وأنا أركض خلف «فؤاد» حتى دخل غرفة الحرس وأغلقوا الباب، أمسك بي أربعة سجّانين وامتلأت الساحة بهم، والضابط المناوب وشاويش الساحة يحاولان فهم شيء..

كانت طنجرة الطعام بجانبي.. احترت ماذا أفعل؟ لم أضرب «فؤاد» ولن أنجو من العقاب.

وفي هذه اللحظة خرج «فؤاد» من غرفة الحرس فانطلقت كالسهم تجاهه قائلاً:

- يا حقير بتسب ديني ؟

فأعادوه وحضر الممرض يحمل إبرة ما، فقلت له:

- يا «حاييم»، إذا أعطيتني هذه الإبرة بعد يومين سأقتلك.

وهنا تدخل الضابط سائلاً الممرض، فهمت من الإجابة أنّي مصاب بنوبة هستيرية.. ارتحت للتشخيص وأقسمت لأقتلن «فؤاد».

فهدّأ «إيلي ميليخ» من لهجته وسألني :ماذا فعل فؤاد؟

قلت:

- شتم ديني .

- ربما شتم الرب.

- لا.. وهذا، - أشرت إلى السجّان اليهودي – شاهد على ما أقوله وبإمكانك سؤاله.

فسأل السجّان اليهودي، ناظراً إليّ، فقال السجّان:

- يا سيدي.. قال السجين: الأكل قليل، فقال «فؤاد»: يلعن دينك.. امتى بدكوا تشبعوا، وهرب «فؤاد» ولم أستطع إغلاق الباب، فركض السجين مثل المجنون..

وأتدخل لغرابة الموقف متسائلة:

- هل سبّ دينك أم ماذا؟

- لا لم يشتم، لكن عليّ أن أكمل حتى النهاية..

- إذاً كيف شهد السجّان معك ؟

- السجّان الآخر راوده شعور بالخوف لارتكابه مخالفة عدم إغلاق الباب ومنعي من الخروج، ثانياً سمع قولي للممرّض وشاهد حالتي وهيجاني، فشهد شهادة زور.

- وماذا بعد ذلك؟

- طلب الضابط المناوب كرسياً، وطلب إليّ الجلوس وأعطاني فرصة تدخين سيجارة وقال:

- أنت تعرف، أنا لم أضرب سجيناً واحداً منكم، أو غيركم لذلك أرجو أن تكون صادقاً معي.

- فقلت: عليك أولاً التأكد مما أقوله لك، ومن ثمّ أعرف طريق الزنازين الانفرادية.. وأذهب.. هذا المدعو «فؤاد» مصاب بيده اليمنى في اشتباك ضدنا عندما كان في حرس الحدود، ومن يوم حضوره إلى

هنا يقوم بضربي من دون المعتقلين.. وأعتقد أنّ القانون في كل العالم لا يسمح بمثل هذا السلوك.

أنهيت تدخين السيجارة، وطلبت أن أذهب إلى الزنزانة، لكن الضابط المناوب طلب مني الانتظار وذهب إلى الغرفة، أحضر بعض الرفاق، وطلبوا مني العودة إلى الغرفة وإعطاء «إيلي ميليخ» فرصة معالجة الأمر، لكني قلت وأنا أنتظر لأرى «فؤاد»:

- سأذبحه يوماً..

وفي المساء فتح الضابط باب الغرفة وقال:

- أبو عرب.. كل الاحترام لك، ما قلته صحيح والسجّان شهد بما قلت، وكذلك أقر «فؤاد» بالواقعة واعترف بالانتقام منك.

أسأله:

- كيف تجرأت على افتعال هذا الموقف وفعله ؟

- أولاً: أريد أن انتهي من موضوع الضرب اليومي، فقررت واعياً.. كما قلت لك.

ثانياً: التقطت كلمة الممرض حين قال «هستيريا» وعملت على استغلالها بكل أبعادها، لذلك شهد السجّان الآخر وكذلك مهادنة الضابط، باختصار حققت مرّة أخرى وقوفاً جديداً على قبّة السماء.

* * *

وفي السنة الثالثة يا عزيزتي:

تم في ربيع هذه السنة اكتمال الاستعداد للإضراب عن الطعام بعد أن استنفذنا كل الإجراءات الضرورية، ولم نترك للمصادفة أي

دور وكذلك حددنا دور الموقوفين الإداريين وبعض الرفاق الذين نرى ضرورة إعفائهم من المشاركة، وهؤلاء قسمان:

الأول: المرضى والمصابون إصابات بالغة.

والثاني: من نرى خطراً عليهم، ويمكن تصفيتهم في حال إضرابهم.

وتم تأجيل موعد الإضراب مرّات عدّة لأسباب تتعلق بنا، وأخرى تتعلق بالمعتقلات المساندة، وغيرها تتعلق بالاستعدادات الخارجية، والمقصود هنا الأهل والمنظمات الإنسانية والجمعيات الفلسطينية والبلديات، ولم يكن معتقل عسقلان بالاسم الذي يمر دون أن يثير الانتباه من حيث قسوة ظروفه وشروط الحياة والمعاملة التي تستند في مجملها إلى القمع والإسراف المطلق في العنف.

وأذكر أنه بتاريخ 1970/6/23 حددنا يوم الأحد 7/5/ اليوم الأول للإضراب مع وجبة الإفطار.

وللمرة الأولى تمّ إبلاغ الكوادر بالتاريخ، ويصادف هذا التاريخ زيارة أهالي الرفاق المعتقلين من شمالي الضفة الغربية.

وفي اليوم التالي تركت الغرفة (13) وذهبت مكان شاب في الغرفة (12) وأمضيت الليل بصحبة الأخ «عبد القادر أبو الفحم».

كان عليّ واجب إقناعه بعدم المشاركة في الإضراب، وهي فرصة لأذكر شيئاً عنه.

كان «عبد القادر» مساعداً في جيش التحرير الفلسطيني، تصدّى للعدو الصهيوني سنة 1956 وأبلى بلاءً حسناً.

وفي سنة 1967 بقي في خان يونس مع بعض الوحدات، وكبّد العدو خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات، وقام بنشر جنوده على أسطح المنازل، وكل جندي يحمل لغماً مضاداً للدروع، ويقوم بإلقاء اللغم على ظهر الدبابة، وبعد أن انتهت الحرب بقي في غزّة ورفّع إلى رتبة ملازم وقام بتنظيم بقايا جيش التحرير تحت اسم قوات التحرير الشعبية، وأقضّ مضاجع العدو حتى وقع اشتباك وأصيب إصابات بالغة في أنحاء جسده كافة من طلقات في الوجه إلى الساقين، وعندما تعرّف إليه قائد العدو العسكري، نقلوه بطائرة عمودية، طالبين من المشفى إنقاذ حياته بأي ثمن، ولم يُفلح مشفى «بئر السبع» بذلك فنقلوه إلى مشفى «هداسا» في القدس.. وعاش الرجل يحمل جراحاته ويأبى أن يتفوّه بكلمة.

هذا هو «عبد القادر – أبو الفحم»، وكان قرارنا مبنياً على اعتقادنا أنّ العدو سيقتله.

في تلك الليلة أقنعت «عبد القادر» بعدم الإعلان عن إضرابه، وعدت في اليوم التالي إلى غرفة (13) وحضر عضو كنيست يدعى «أوري أفنيري» وقف أمام غرفتنا ليسأل:

- هل تعترف بإسرائيل ؟

- من أنت؟ أجبته.. ومن أتى بك؟

- أنا «أوري أفنيري»، جئت لأساعدكم بعد أن سمعت عن هذا السجن.

- لو أني أعترف بما ذكرت، لكان لا حاجة لي أن أكون هنا، أرجوك عُد من حيث أتيت.

وتدخل المرحوم «عمر قاسم» وقال لي:

- انتظر لنفهم.

- أجبت: يسألني إن كنت أعترف بدولتهم.

شتم بكلمات بذيئة وانصرف «أوري أفنيري».

يوم الجمعة 1970/6/26، كانت الخدمة عليّ وعلى الأخ «عمر أبو راشد» نظفنا الغرفة وأنهينا جلي الصحون، عدنا لتدخين سيجارة، وهم بالعادة يوزعون علينا مخصص يوم الجمعة والسبت من السجائر، ووجدت أيضاً موزتين، فسألت:

- من أين الثانية؟

- قالوا: دورك في الزيادة.

كان أحد الرفاق قد عاد من زيارة أهله، وهنا قال لي رفيق:

- هذا أبو علي بدِّل الكتاب.

«وأبو علي» هذا يا سيدتي رقيب، أمّي، مسؤول الثقافة، ناديته.. وطلبت أن يبدّل لي كتاب «قصة مدينتين»، فقال بصوت مرتفع جداً:

- يلعن أبوك على أبو أم الزينات، يا عرص يا ابن العرص.. جيب كل ثيابك وتعال.

حملت بطانياتي وثماني سجائر والموزتين وخرجت، وعلى الباب قال:

- هات السجائر.

وتدخل رئيس الممرضين ويدعى «يودا آلون» قائلاً:

- هات الموز، أنت معك حساسية.

- فقلت: سأعيد الموز للغرفة، والسجائر كذلك.

فشتمني «أبو علي» وأخرجوني إلى ضابط يدعى «شلومو زيتون» وهو يهودي من أصل تونسي، سألني:

- ما اسمك ؟

- إبراهيم رجا سلامة .

- اسم بالكامل.

- لن أقول كلمة «سيدي»...

ضحك ونظر في ورقة بيده وقال:

- لا أريد ذلك، فقط اسمك الكامل.

- إبراهيم رجا سلامة عبد القادر سلامة.

- فقط ؟!

- وهل أكثر من ذلك؟

التفت إلى عريف يدعى «يوسف صغيّر» قائلاً له:

- ليس هو المقصود، أرجعه على غرفته.

وعندما عدت، قال لي خنجر «أبو علي»:

- ليش رجعت ؟

- زيتون قال لي ارجع.

- زيتون حمار.. تعال معي.

سبقته إلى زيتون، قال:

- شو بتعمل هون؟ ارجع.

- قلت له: «أبو علي» قال إنك حمار وما بتعرف.

وجاء «أبو علي» بعدي وقال:

- يا سيدي هذا هو.

أمسك بي «زيتون» وهزّني قائلاً:

- أنت أبو عرب؟

- نعم.

- لماذا لم تقل ؟

- أنت سألت عن اسمي، وليس عن لقبي.

فأمر سجّانين بأخذي وتعريتي وإلقائي بمنفردة.

وفي المساء أحضروا إلى الزنزانة المقابلة «جهاد ياسين» وهو رفيق محكوم سبعة أيام «بالمنفردة» وأمر مدير السجن بإلقائه حتى لا ينقل للمعتقلين أية أوامر كما يعتقدون، وأثناء حديثي مع السجّان ويدعى «إبراهام كوهين» علمت أنّ بالجانب الآخر من الزنازين ثلاثة رفاق هم: «أبو علي شاهين – أحمد رشيد – عمر قاسم» طلبت من السجّان حقي من السجائر، فقال:

- انتظر حتى أرى ما هو مكتوب في الدفتر.

عاد بعد قليل وقال:

- أنت هنا بخصوص أمن المعتقل، يعني أنّكم تريدون تخريب المعتقل.

قلت:

- أعرف ذلك، لكن هل منع المدير التدخين والطعام أيضاً ؟

- لا .

- إذا أعطني سجائري.

ذهب وأحضر سيجارة واحدة وقال:

- كُلّ وجبة طعام أعطيك سيجارة.

أعطاني السيجارة وذهب.

في اليوم التالي حضر إلى الزنزانة المقابلة «زعل عيسى سلامة» بحجة ضربه لشرطي، وادعى أنه ابن خالي.

فهمت ما يرمون إليه، فأبلغته باختصار شديد أن الإضراب سيكون في موعده. دقائق حضر مدير السجن غاضباً، أخرج «زعل» ونقلوا «جهاد» إلى زنزانتي، وقال للشرطة:

- بالأصل افتعل السجين «زعل» المشكلة لتضعوه في مكان يوجد فيه أحدهم لأخذ التعليمات.

في الساعة العاشرة ليلاً من يوم السبت 1970/6/27 أخرجوني، فكّوا قيودي وقالوا:

- ستقابل المدير.

- لم أطلب مقابلته.

أخذوني إلى عيادة المعتقل.

وقف المدير ومدّ يده ليصافحني ويطلب مني بأدب أن أجلس.. جلست.. وبدأ الحديث بالسؤال عن صحتي، وبعض الجمل تحمل مجاملة مثل «أنا أحترمك كثيراً، وبودي أن نتحدث كعسكريين يحمل كل منهما احتراماً للآخر».

قلت :

- حتى لا تضيّع الوقت ادخل في الموضوع مباشرة واسمح لي أن أبّقي علاقتي بك علاقة سجّان بمعتقل، ببساطة ماذا تريد؟

- لنضع أسس التفاهم، أنتم مقدمون على إضراب، وأنا لا أريد لكم الضرر.

- أنت تبحث عن إبعاد الضرر عنك، وما تقوله ليس دقيقاً.

- لا.. لدّي معلومات أنكم ستعلنون الإضراب في 7/5.

- إذاً تمسك بمعلوماتك وسترى أنّ لا شيء من هذا القبيل، وإلى الآن لم تقل لماذا تناقشني.

- لديكم ما تطلبونه وما تسعون لتحقيقه، وأنا مستعد لنقاش طلباتكم وتحقيق الممكن منها.

- إذاً.. أنت تريد مني منع إضراب مفترض، وأقول لك، أنا واحد من أربعمائة معتقل لا أملك حق الحديث نيابة عن أحد.

- واحد من أربعة على وجه الدقة.

- سأسير مع افتراضك من هم الأربعة ؟

- أنت تعرف من هم وأقول لك: اجتمعت معهم فوافقوا على منع الإضراب وبقي رأيك أنت !

- جيد.. وفي الفرضية التي تضعها يمكنك الاعتماد على ثلاثة أرباع (مع) وربع (ضد)، أي أنّ قراراً قد اتّخذ.

- لا.. لا، هم اشترطوا موافقتك.

- أنا أقترح أن تجمعني بهم.

- أنا لا أكذب وأحذرك من مغبّة إعلان الإضراب..

- شكراً لك، ولكن ليس لنا طلبات تحققها، انتظرنا سنة ونصف السنة ونحن تحت نارك، لم يُفلح صبرنا إلاّ مزيداً من قهركم...

- مقاطعاً.. أنت تتحدى، وأنا أمهلك أن لا تفعل ذلك.

- ليس تحدياً بل هو حق لي أقرّت به كل الشرائع الدولية، وأنت حرّ في فهمك.

- سنرى.

وأمرهم بإعادة القيود وإعادتي إلى الزنزانة، وعند الباب وقف وقال:

- لقد كسّرتُ رؤوساً كثيرة، لا تجبروني على المزيد.

- سيكون الإضراب هو حالة الفصل بيننا.

سحبني السجّان إلى الخارج وقبل أن أدخل الزنزانة لطمني لسوء سلوكي مع السيد المدير.

وفي يوم الاثنين 6/29/، الساعة السابعة مساءً، جاء عريف يدعى «يوسف صغيّر» وأخرجني إلى ساحة العيادة لآخذ نصف ساحة فسحة ، وأحضروا الأخ «صبحي البابا» و «جهاد ياسين»، أغلقوا باب الساحة الصغير، جلسنا، وشرطي يدعى «ميمون دهان» على السطح يراقب حركتنا متسلحاً برشاش «عوزي»، بدأنا الحديث عن الإضراب، واتفقنا أنه إذا خرج أي منهم إلى المعتقل لتبقى الترتيبات كما هي، واللجان البديلة تأخذ دورها، رغم شكّي بأن أحداً لن يعود قبل انتهاء الإضراب، فسألني «جهاد» عن زر أحمر على جدار الساحة، قلت:

- هذا جرس إنذار في حال حصول شيء غير عادي يقوم السجّان بالضغط عليه ليستنفر السجّانين والجيش المكلف بحراسة المعتقل.

فقال:

- إذاً لنجري تجربة.

- أنت تعرف ماذا سيفعلون بنا.

قال جهاد:

- ليفعلوا ما يشاؤون.

- صبحي: إذاً نتوكل على الله.

قام بضغط الزر، فرفع «جهاد» يده قائلاً:

- دوري.

وأنا أضحك:

- يا أهبل خلاص، سيأتون حالاً..

وفي دقائق كان مدير السجن والسجّانين بهراواتهم يملؤون الساحة الصغيرة والكبيرة أيضاً، وعندما لم يجدوا إلاّ غيرنا أمرهم بضربنا، وأشار إليّ، وقفت رافعاً رأسي قائلاً:

- اضرب .

انهال عليّ ضرباً، و«جهاد» مكوّم في الزاوية، و«صبحي» في الزاوية الأخرى، صمدت برهة ومن ثمّ سقطت على الأرض.

وبدؤوا بالاستجواب، يحاولون إيهام كل واحد منا بأن الآخرَين اعترفاً عليه.

وعندما لم يجدوا مذنباً قرروا ما يلي:

1- تفتيشنا عُراة، وإدخال منظار شرجي لمعرفة ما نخبئ.

2- وضع قيدين إضافيين لكل واحد في الساقين وربطه بقيد اليدين عن طريق قيد ثالث، يُفك هذا الواصل عند وجبة الطعام ويُعاد.

3- حشرنا في زنزانة واحدة.

4- أخذ البطانيات في الصباح وإعادتها في المساء.

هذا الحال يستمر حتى نعترف.

وعندما عدنا إلى الزنزانة... ضحكنا كأننا في سيرك.. راجعنا ما قاله كل واحد منّا لهم، قال لهم «صبحي»:

- ربما ماس كهربائي هو الذي سبب المشكلة.

أما «جهاد» فقال:

- ربما شرطي دقّ في مكان آخر وأصرّ على جهله تماماً.

أما أنا فلم أرَ هذا الزر المزعوم.

واستمروا في الأيام التالية باستجوابنا، وكل فترة يأخذون واحداً منا، وفي آخر مرّة قال المدير:

- هل يعقل أن لا يكون أحدكم قد فعل ذلك؟

قلت له:

- لماذا لا تأخذون البصمات وتتحققوا من الفاعل؟

أجاب :

- «إنتوا ماسحين البصمات عن الزجاج».

- إذاً ابحثوا عن سبب قرعه عند سوانا.

وفي يوم الأحد 7/5/ أُعلن الإضراب، والتفتوا إلى الموقوفين الإداريين وبدؤوا بسياسة الترغيب والترهيب، واستطاعت الإدارة خلال ثلاثة أيام إنهاء إضراب الموقوفين بثلاث طرق:

1- نقل جزء إلى سجن غزة.

2- ممارسة العنف.

3- تخفيف مدّة توقيف البعض.

وكما قلت لكِ سابقاً لم يكن مفاجئاً لنا موقف الرفاق الموقوفين، ونحن وفق خطتنا بحاجة لإضرابهم هذه المدّة، وقد أعلن المعتقلون في المعتقلات كافة الإضراب التضامني مع إضراب عسقلان.

حاولت الإدارة أن تخرج من المأزق وكذلك مديرية السجون العامة، على المستوى الأول: شرعت بالتفاوض، من جهتي رفضت وكذلك الرفاق الآخرين بحجة عدم وجودنا في المعتقل، وعلى الصعيد نفسه كنّا نعلم أن اللجان البديلة تقوم بواجبها، ولحظة شروعها بالتفاوض لا بد أن تعود إلى الأسس والمبادئ التي اتفقنا عليها، وعلى المستوى الثاني: قررت المعتقلات فك إضرابها بعد «عسقلان».

ولم تجرِ الأمور حسب الخطة، فعلمت يوم 7/11/ أنّ الرفيق «عبد القادر أبو الفحم» قد استشهد، و«محمد خليل إبراهيم» قُطعت ساقه، وتم إنهاء الإضراب بخضوع الإدارة وتحقيق سبعين بالمائة من طلباتنا، ولكن الشيء الذي أُنجز والذي كان الإضراب بسببه هو كسر حاجز الرعب.

ووافقت الإدارة على زيادة الفسحة من نصف ساعة إلى ساعة وتحسين الطعام وإلغاء عقوبة الضرب، ووضعت شرطاً «إلا إذا تعرض الشرطي للضرب»، وهذا هو الهدف، وكذلك وافقت على إدخال كتب عن طريق الصليب الأحمر، وزيادة كمية الفواكه في الزيارة من الأهل، وبعد ذلك عاد الشباب إلى المعتقل، أما المدير فأصرّ على عقابنا شهراً كاملاً، أو نعترف بفعله قرع الجرس .

- ولكن ما هو شكل العقاب المقرر من المدير؟

- شهر في الزنزانة مع قيودنا، وساعة في الليل للتشمس، والسير والقيود في أيدينا وأرجلنا، وبعد أسبوع تمزق جلد ولحم الساقين والمعصمين، فجاء المدير بنصيحة للممرض مفادها أن نلبس كلسات صوف لتحمي الجروح، وخرج اللحم من الصوف، ومن ثمّ قرروا إراحة أرجلنا ثلاثة أيام، وهكذا استمر الحال إلى نهاية الشهر لنعود ومعاصمنا وكواحلنا مفتوحة، وكنّا نعتقد بأنّ الجراح لا تندمل !

* * *

أسأل إبراهيم عن ألم كنت قد نحيته جانباً وهو استشهاد «عبد القادر – أبو الفحم».

- كيف استشهد «عبد القادر» وهل قُتل فعلاً؟

يجيب:

- سبق وقلت لكِ أنّي كُلّفت بإقناعه بعدم الإعلان عن إضرابه، وتذكرين ذهابي لغرفته، ولكن بعد عزلنا اختلفوا على توقيت الإضراب، كان أن حضر «زعل سلامة» وعاد ليخبر بالموقف، لكن شخصاً يدعى «فايز الغوراني»، أخذ موقفاً مغايراً، فأجاب «أبو الفحم» بأننا يجب أن نعلن الإضراب. فردّ «فايز»:

- أنت لديك قرار بعدم الإضراب، أي «مو سائل».

قال أبو الفحم:

- أنا أول من سيعلن الإضراب، ولو جاء أمر من السماء، اطمئن.

وأعلن الإضراب، وقام السجّانون بانتهاز الفرصة التي جاءتهم على طبق من ذهب، فأعطوه الحليب بعد أن أدخلوا الأنبوب إلى الرئة بدلاً من المعدة...

وهكذا سافر «أبو حاتم» مع كل أمانينا وأحلامنا ليحط في قبر ينفجر وتخرج نخلة تحمل ألق سنواته وتُشع إلى يوم القيامة، وأجزم أنّ رجولته وتاريخه لا يساويهما أحد.

نعم، كنا على حق في تحليلنا، وكان على حق في صعوده.

- إذاً كيف أُشيع أنه مات داخل المشفى؟

نقلوا الجثمان من عيادة المعتقل إلى المشفى لإجراء عمل جراحي، لتغطية عملية القتل، وقاموا بفتح صدره حتى يغطوا «خطأ» غير مقصود.

لكن المؤكد وفق كل المعطيات أن «أبا الفحم» قُتل عن عمد، وإلاّ لِمَ لم يدخلوا حليباً لرئة مناضل غيره!! ولهم حساب طويل مع «أبي الفحم» كما ذكرت سابقاً رحمه الله، وإذا حالفني الحظ وأسعفني العمر سأكتب شيئاً يليق به.

بعد أسبوع من مكوثي في غرفة (1) أخرجوني لأغتسل وكان الاغتسال محدداً بقدرة الشاويش على العدّ من العشرة إلى صفر، ويغلقون الماء.

فحضر «زيتون»، أخذني من يدي وسار بي جهة الزنازين، فقلت له:

- والبطانيات ؟

- بالزنزانة.

وفـي الزنزانـة رقـم (2) وجـدت أغراضـي، والأخ «أبـو علـي شـاهين» وبـدأت الإدارة بإحضـار الرفـاق وامـتلأت الزنـازين بثلاثـين مناضلاً، في كل زنزانة رفيقان.

وبعـد أيـام جـاء المـدير لـيعلن أنـه اكتشـف الهيكليـة التنظيميـة للمعتقل، وهـي برأيـه تتـألف مـن خمسـة يشـكلون قيـادة عليـا، يعـاونهم خمسـة عشـر، أي لكـل قائـد ثلاثـة نـواب، وهـؤلاء النـواب لهـم نـواب أيضاً، وعلى هذا الأساس استطاع أن يعرف كل الأشخاص المؤثرين، وبعد أن انصرف قلت «لأبي علي» :

- يجب إعطاء هذا المعتوه وساماً.

أقاطعه سائلةً:

- هل هذا صحيح، وكيف استطاع إنجازه ؟

- لا صحيح ولا «نيلة»، قيادة المعتقل، سأتحدث عنها فيما بعد، ولكـن لا صـحة لاعتقـاده إطلاقـاً، هنـاك مسـؤولون معروفـون بحكـم مواقعهم بالعمل الوطني وتأثيرهم بالمعتقل، وهناك مناضلون لا علاقة لهـم بمركـز القـرار، هـم مجـرد مناضـلين، وكـل مـنهم يتمتـع بصـلابة فائقـة، أي اسـتنتاج المـدير لـم يكـن يحمـل فـي أي مـن جوانبـه محاكـاة للحقيقة.

وهكذا بقينا في الزنـازين حتـى 1970/9/28، جـاء يومهـا المـدير والعريف «جورنو» إلى زنزانتي ، فتحوا باب الزنزانة وقال المدير:

- البقية في حياتكم.

- مَنْ؟

- الرئيس جمال عبد الناصر!!

ضحكت وقلت:

- ألم يبقَ شيئاً تحاربون به غير هذا ؟

- لا.. الخبر صحيح، وعبد الناصر كان زعيم أُمة رحمه الله.

قال «عبد العزيز شاهين»:

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال المدير:

- ماذا تريدون أن أفعل من أجل ذلك؟

قال «عبد العزيز»:

- نحن بحاجة إلى أسبوع حداد، سنمتنع عن الحمّام والنزهة اليومية ونواسي بعضنا.

قال المدير:

- لكم ذلك... ورحمة الله عليه.

وانصرف.

وبعد أيام بدأنا نستوعب موت «عبد الناصر» ونفكّر بما آلت إليه أوضاع الثورة في الأردن، ذكرت يومها «أبو علي» بتحليل لموقفنا في الأردن، وكان ذلك قبل الإضراب، يومها كانت الاشتباكات بين الجيش الأردني والفدائيين عبارة عن مناوشات بسيطة هنا وهناك، وكان في مقدوري أن أبني على المعلومات المتوفرة تحليلاً يقود إلى

أنّ هنـاك أزمـة تخلقهـا المقاومـة عـن طريـق السـلوك العـام وسـلوك العناصر لم يكن الفدائي «الفج» قادراً على إقامة علاقات مع الفلاح والجندي، هذا فضلاً عن طرح شعارات من بعض الفصائل مثل «لا سلطة فوق سلطة المقاومة»، والسبب الأهم هو تنامي تأثير المقاومة ووصولها إلى رقم لا يمكن تجاوزه في المنطقة، كل ذلك جعل النظام الأردني والعدو وحليفهما «أمريكا» يبحثون عن خلاص من المقاومة في الأردن وأذكر أنّي قلت: لن يمر وقت طويل إلاّ ونجد أنفسنا في مواجهة النظام، ولحظتها سنجد أنفسنا في عراء كامل.

وجاء شهر رمضان، قررت الإدارة نقل جزء منّا إلى الغرف، وكان قد تغير المدير ونائبه، ومع الذين خرجوا من الزنازين الأخ «أبو علي» لإصابته بقرحة في المعدة.

وقبل نهاية العام تم إعادتنا إلى الغرف.

وفي خضم هذه الآلام الموجعة، وجدته بعد شرود يضحك فسألته:

- ولِمَ هذا الضحك رغم هذا الوجع ؟

أجاب :

- كانت لنا طقوس قد لا يفهمها إلاّ من عاشها، على سبيل المثال: الزنزانة مغلقة تماماً ولا تفتح الطاقة الصغيرة إلاّ عند الطعام لإدخاله ومن ثم إغلاقها، لكن تواصلنا كان من تحت الباب، وكون زنزانتنا هي الوسطى، فكنا نحتفظ بخيط طويل يحمل «بصة نار» لإشعال السجائر في أوقات المنع، وكنّا قد صنعنا حبلاً يصل إلى آخر زنزانة.

وفي إحدى المرات بعد أن حصل «أبو علي» على زيارة من أهله كان علينا تقاسم ما جلبوه له، قمنا أولاً بتقسيم التفاحات إلى ثلاثين قطعة، وكذلك الموز، لكل واحد «قطعة واحدة من البسكويت وسيجارة»... ولم نكن نملك إلاّ كيس نايلون واحد، فتم وضع حصّة الزنزانة رقم (15) وهي الأبعد. ومن تحت الباب أرسلنا طرف الحبل مربوطاً بقطعة معدنية أخذناها من الحذاء لتصل إلى الزنزانة المقابلة وبدورها إلى الزنزانة عن يسارنا وهذه بدورها إلى الزنزانة المقابلة... وهكذا حتى تصل إلى أصحابها، ومن سوء الحظ أو حسنه في النقلة الأخيرة للزنزانة التي بها الصديق «يعقوب ديوانة» و «يوسف جرادات» وفي اللحظة التي غادرت بها الأغراض دخل الممرض صدفة لإعطاء «محمد حمدان القاق» الدواء، أمسك بكيس النايلون وذهب إلى المدير، وقامت الدنيا وأخذوا «يعقوب ويوسف» للمحاكمة.

دخل الأول «يعقوب» ليجد المدير «يدغر» ومساعده «ألبرت العزام» وهما يهوديان مصريان، فقال له:

- ما هذا؟ ورفع كيس النايلون.

قال يعقوب:

- هذه حصتنا من الزيارة.

- التفاح أسود، والموز أسود، والبسكويت تكسّر، وقطع صغيرة لا تستاهل هذا التعب.

- القضية ليست بصغر قطعة الموز أو التفاح، القضية في الأساس هي المشاركة، لا يمكن لواحد منّا أن يدخن سيجارة إلاّ مع الكل.

- الممرض يقول إنه وجدها أمام باب زنزانتكم، وشاهدها تخرج من زنزانة «أبو عرب» أضف لذلك أنّ الزيارة في غرفته.

- هذا صحيح، ولا نقاش به، نحن نفعل ما نراه صائباً بصرف النظر عن إجراءاتكم.

- حسناً، بما أنك قلت الحقيقة فلن أصدر حكماً.

بعد ذلك، عاد «يعقوب»، أما «يوسف» فقد أنكر تماماً، وعندها قال المدير له:

- يعقوب اعترف.

ولم يتأخر مدير المعتقل، وجاء ليفتح زنزانتي ويسأل:

- من أين هذا الحبل؟

- رددت: من البطانيات.

- هذا يخرّب البطانية.

- يتم استبدالها.

- من مال أبوك ؟

- لا.. منكم طبعاً.

- أتعرف عقوبة ذلك ؟

- أنا بالزنزانة، وإضافة مؤبد آخر لن يغير بالمسألة شيئاً.

- سؤالي لماذا تفعلون ذلك؟

- ببساطة، السجّان لا يريد إيصال سيجارة إلى زنزانة أخرى أو منها، ونحن سنجد وسيلة التواصل ووسيلة تحقيق التعاون الجماعي والكلي، قد تفهم هذه المسألة وتعمل على تكريس الفردية.

- أنا سأقول للضابط المناوب أن يقوم بتسهيل نقل أغراض من زنزانة إلى أخرى شرط عدم صنع حبال وتخريب.

ردّ «أبو علي»:

- إذاً لا مشكلة الآن ولن نقول سنجرّب.

انصرف المدير.

وفي اليوم التالي بدؤوا بإضافة عوارض حديدية إلى أسفل باب الزنزانة.

ولكن بقيت مسافة صغيرة...

- أسأله: التزم المدير بما وعد ؟

- نعم التزم، ومن هنا أشرت إلى الفتحة الصغيرة التي بقيت لاستعمال إيصال «الشرارة» إلى من يريد أن يدخن في أوقات المنع، أي بقي الحبل الحامل «للشرارة» موجوداً.

وفي ليلة ، وبعد منتصف الليل، طلبت الزنزانة رقم (9) إشعال سيجارة، قمت بتجهيز ما يلزم وأرسلنا الحبل، وإذا بالأضواء تطفأ لحظة خروج الشرارة من زنزانتي، وصوت «خنجر» يقول:

- يا ابن الكلب، من أين «سراج الغولة» هذا؟

وأشعل الأضواء، وفتح طاقة زنزانتي، وشتمني وقريتي وكل ما يخصّ جبل الكرمل.

قلت:

- عيب يا «أبو علي»، كل هذا من أجل «ولعة»؟

- لا «ولعة» ولا «خراء»... أنا شو قصّرت معكم؟

- مثلاً لا تشعل لنا إلاّ ثلاث مرّات، وإذا أردنا أن ندخن في غير أوقاتك ماذا نفعل؟

- أنا سأشعل لكم في كل وقت، بس خلصوني من سراج الغولة.

بعد ذلك جربناه عدّة أيام.. كان ملتزماً ولم نعد نشعل أو ننقل.

أوقفت الدعابة، لأعود إلى خروج بعضهم من الزنازين وبقاء الآخرين مستفسرة عن هذا، فأجاب:

- في رمضان، وإكراماً لهذا الشهر قرر المدير الاكتفاء بمدّة وجود البعض في الزنازين ولم يرَ في البقية أنه يستحقون «هذا المكرمة» وبقينا (12) رفيقاً، قسمونا إلى صائم وغير صائم، فكنت والرفيق يعقوب في زنزانة واحدة، وفي اليوم الثالث جاء ضابط يدعى «طولو دانوا» سأل مستغرباً:

- لماذا أنتما سوياً؟

- نحن غير صائمين.

- لا.. لا يجوز مسلم ومسيحي مع بعض.

قال يعقوب:

- إذا أُعلن إسلامي.

أسأله ضاحكةً:

- وهل فعل ذلك؟

- الضابط قال لا ينفع ذلك.

- فقلت: لماذا لا تقول بالضبط ماذا تريد؟ إذا قلتم الصائمون وغير الصائمين كلٌّ في جهة؟

- فعلنا ذلك، وقلت مسلم ومسيحي، قلنا نحن عرب مسيحيون ومسلمون، وإذا قال أحدنا أنه يغيّر دينه، قلتم لا يجوز، ماذا تريد بالضبط؟

ضحك وقال:

- الزنزانة عقاب، وهي في وجودكما معاً ليست عقاباً، أنت وهو مثقفان، نريد أن نضع مع كل واحد منكم شخصاً يثير له المتاعب.

- جيد.. لن تجد أحداً.

- إذاً كل واحد في زنزانة.

وهكذا كان..

وعند نهاية شهر رمضان وقدوم العيد استبشرنا خيراً بالعودة إلى المعتقل، لكنهم لم يعرفوا أنّ العيد قد مرّ وأوشكت السنة الثالثة على الانتهاء.

* * *

وقبل أن ندخل في السنة الرابعة، كان لا بد من سؤال ماذا يعني الإضراب، وما هي انعكاساته على الإدارة وسياستها، وانعكاسه على المعتقلين؟

إذ كيف يضع المعتقلون أنفسهم في مواجهة خطرين:

الأول: آثار الإضراب الجسدية والنفسية.

الثاني: ردود فعل السلطات، والتي لن تكون حميدة.

أجاب:

- قبل كل شيء سنحاول تعريف الإضراب، وهو من حيث الفعل امتناع أو رفض لحق يملكه المعتقل، وهو وضع الجسد والروح في مواجهة، وهو بداية دخول في محرم، وفق قوانين الإدارة، وهو بهذا المعنى امتناع عن تناول الطعام بهدف الإضرار بالجسد وهما مسؤولية القوانين والإدارة، وهذه الأخيرة ملزمة بالحفاظ على حياة المناضل.

ماذا يعني الإضراب؟ إعلان حرب لا تكافؤ فيها، سلاحها الوحيد الإرادة، وهنا يمكن القول إنّ التمرد في هذا المجال يصبح الشيء الوحيد الذي يمكن استخدامه سلاحاً في الوقت ذاته يصحّ القول فيه إنه خروج عن قواعد اللعبة بين مستضعف وأداة وعناصر القمع «قوانين وأنظمة وجنود وهراوات... الخ».

كيف لهذه الإدارة أن تتعامل مع المُضرب عن الطعام، وهي بحاجة إلى ما يلي:

الاستنفار: على مستويات عدّة «حشد القوّة، حشد طاقة تمريضية إضافة إلى تغيير نمط وشكل الطهي».

- هل ينفع العنف؟

- أحياناً وفي حالات خاصة جداً، ومحدودة جداً، وإذا كان الإضراب ذاته هو محاولة في الدخول إلى المعاناة فيشكل العنف أحد الأسباب الموجبة للصمود، وبعد ذلك يبدأ الجسد بفقد جزء من قوته وقليلاً قليلاً.. يصل إلى مرحلة الإجبار على التغذية، إما عن طريق إعطاء حليب عن طريق «أنبوب» يدخل إلى المعدة عن طريق الأنف أو الفم، والغاية هي الإبقاء على حد من التدهور لا يوصل إلى المرحلة التالية: وهي التغذية عن طريق الأوردة والنقل إلى المشافي.

من هذا الإضراب سلاح ذو حدّين، حدّه الأول: تراجع قدرة المناضل الجسدية تدريجياً حتى الوصول إلى حافة الخطر، أو الخطر ذاته، وفي المقابل هو يُدخل الإدارة وأدواتها ووسائلها وسياساتها في مأزق، حده الأول: التعامل مع الإضراب على أنه حالة شاذة يجب إيقافها، وفي حده الثاني: أزمة أخلاقية وسياسية وقانونية على المستويات كافة.

أقاطعه:

- لم تُجب على ما أريد..

لماذا تختارون الإضراب كسلاح في وجه الإدارة وأنتم تعرفون نتائجه، بل أنتم مهددون بالموت كل لحظة؟

- عندما يكون المرء في حالة عداء مع آخر يستنفر كل منهما أدوات قتاله ويستعمل كل الأساليب والوسائل التي يراها ممكنة لقهر

هذا الآخر أو دحره، ولما كان الاعتقال مواجهة محدودة في مكان معين ولحظة زمنية محددة، لحظتها عليكِ أن تبدئي بالمطالبة بحق أو أكثر من الحقوق الإنسانية بداية، وفي حال الرفض ما هو السلاح الممكن استخدامه بعد المطالبة والتفاوض وتدخل هيئات دولية أو محلية؟ يصبح هنا الإضراب الحل الأخير على الرغم مما يحمله من خطر، ولكن أهمية الإضراب أنه يوصل للخطر، وأقول لكِ شيئاً: تحاول الإدارة في فترة الإضراب أن تقوم بتهريب بعض المواد للمعتقلين، لكن في نهاية الأمر لا بد من التفاوض، وهنا يتحول الضعف والخطر على الحياة إلى سلاح يحمل القوة ذاتها، أي نصل إلى حالة توازي قوتين وانتصار إرادة الضعف على إرادة القمع، هل هذه المعادلة مقنعة؟ وقبل أن تجيبي قد يتبادر إلى الذهن أن الإضراب يحول السجّان إلى إنسان يتعاطف مع الآخر.. لا... لا.. ليس التحول ولكن هو خضوع ما لإعادة ترتيب السياسة وتكتيك السلطات، ولا ننسى قبل أن ننهي، الإشارة إلى أن جوهر الصراع الأصلي سياسي، صراع يمتد على مساحة الروح والجسد كما هو على الأرض.

هل هذا كافٍ أم أدخل مدخلاً آخر؟

أضحك وأقول:

- كل المداخل ستقودني إلى ما تريد قوله، وأعتقد بأن ما قلته مقنع إلى حد ما ولو أن صاحب التجربة يراها كما يريدها، وكما يفهمها، وبما أنني لست صاحبة تجربة سأقبل بالحد المقنع لكم.

- اسمحي لي أن أحدثكِ عن إضرابٍ من نوع آخر.. أتى بعد الإضراب الكبير وأسفر عن خسارة شهيد وقطع ساق رفيق وفقد آخر لحواسه وقدم كل منا وسطياً خمسة كيلو غرامات من وزنه.

- وهل حجم الأهداف المحققة يساوي هذا الثمن؟

- بالتأكيد قطرة دم واحدة في مكانها تساوي الوطن.. والجسد والروح في مكانهما مشروع شهادة، فلم تكن النتائج على المستوى المعاشي والمعاملة داخلة في نهاية المعادلة، بل كان الهدف كسر حزام الخوف والتحدي لإعادة بناء ذوات ضد محاولة إلغائها، والآن ونتيجة للإضراب قررنا سنة 1972 التخلي بالكامل عما يمكن تسميته حقوقاً..

وألخص لكِ هذه الحقوق التي نرفضها:

- لكل معتقل حق زيارة من أهله مرة في الشهر.
- لكل معتقل حق كتابة واستقبال الرسائل «ستة رسائل في الشهر» لا تتجاوز الواحدة أربعة أسطر.
- لكل معتقل الحق في الاستحمام بماء ساخن مرة في الأسبوع.

- لكل معتقل حق حلاقة الذقن مرتين في الأسبوع وقص شعره.
- لكل معتقل حق الحصول على حرامات.
- لكل معتقل حق السير ساعة في الشمس.

هنا قررنا الاستغناء عن هذه الحقوق، وبشكل تدريجي وتصاعدي.

بدأنا برفض الزيارة.. وخلقت الحالة جملة من التفسيرات والتأويلات عند الأهل أولاً، والهيئات الدولية والمحلية ثانياً، وطرحت سؤالاً أمام سلطات القمع.. وطرحت أمامنا إمكانات هائلة للمناورة التكتيكية لخدمة موقفنا الاستراتيجي..

أقاطعه:

- مهلاً.. ما التكتيكات وما هي الاستراتيجية؟

- لا بد من ملاحظة قد تبدو بديهية، لم أدخل أهلي في معاناة على المستوى الإنساني، لا يجوز ذلك، لكن ألا يدخل الأسير في معاناة مزدوجة حدّها الأول عذاب أهله ورحلتهم الطويلة من جنين إلى عسقلان.. وحدّها الثاني هو ذاته كإنسان داخل الجدران يتحرق شوقاً، يكويه الألم لرؤية نفسه أعلى درجة في أسلوب العنف الواقع على الذات والمنطلق للخصم، وفي الوقت نفسه يجذر مسألة تغيير الذات باتجاه التصلب والمواجهة أكثر.. أي حرق الطين ليتحول إلى قرميد.

ومن ثم تأتي مرحلة ثانية وهي رفض الخروج للشمس والهواء ويبدو هنا التناقض ظاهرياً، كيف لنا أن نضرب عن الطعام قبل عامين مطالبين بوقت أطول في الشمس والهواء، والآن نرفض الممنوح؟.. وكذلك ينسحب الأمر على كل ما يسمى حقاً، لكن رفضنا لتلك الحقوق أو على الأصح في ممارسة الحقوق هو مقدمة لتوسيع الحقوق.. فالرفض هنا والامتناع يشكلان مدخلاً لتوسيع حجم الممنوح لنا وتحصيل الممنوع وهكذا نصل إلى حلاقة الذقن.. وتدخل الإدارة في مواجهة مع شعيرات كل ذقن.. فمرة «بالزرنيخ» ومرة حلاقة بواسطة الشفرات لتحمل كل ذقن أثلاماً.. هكذا تستمر حياتنا ثلاثة أشهر لتحضر لجنة طبية محاولة إقناعنا بأن أمراضاً جلدية بدأت تغزو بعضاً منا، ولكن لم يفلح أحد في اقتلاع تصريح منّا، أو موافقة ولو مشروطة.

وأخيراً يأتي مفتش السجون ليضع أمامنا موافقة السلطات على طلباتنا.

- وهل توقفتم عن الإضراب وحققتم نتائج؟

بعد مرور شهور أربعة تخللها محاولات خرق موقف المعتقل وأحياناً القسوة، وفي مرات قليلة محاولة الضغط عن طريق الجمعيات الأهلية الفلسطينية أو رؤساء البلديات.. كانت تتصلب مواقفنا أكثر، وكلما أوغلنا في زمن المواجهة يبدو لنا حرق الزمن ضرورياً، وأخيراً جاء مفتش السجون المدعو «نير»، وبعد جولة قصيرة مع مدير المعتقل طلب مقابلة «مختار» عن كل غرفة.

خرجنا للقائه بعد أن طلبنا من الأخوة والرفاق عدم المداخلة أو الدخول في النقاش حتى لو حاول هو أن يسأل فرداً بعينه، وبدأنا الحديث من حيث انتهى السيد «نير» من مقدمته، وعرّف بنفسه على أنه سجين سابق عمل في معتقل نور شمس وكسرت يده أيام الانتداب البريطاني، وأن الذي قام بمعالجته طبيب عربي يدعى «محمد» وخلص إلى نتيجة أنه يتفهم مطالب السجناء ويتعاطف «كسجين سابق» مع كل ما يمس حقوقهم الإنسانية، لكنه لا ينسى أنه يمثل سلطة ترسم حدود صلاحياته.

أخذت الحديث مبتدئاً بالشكر لعواطفه وباعتذاري عن إكمال الحوار معه كونه يملك صلاحيات محكومة بقرار السلطات العليا، نحن لا نرغب في فتح معركة مع أحد وهو ليس المعني، وكذلك مدير المعتقل بالاستجابة أو الرفض لطلباتنا في مجملها أو في كل واحد منها، وانسحبنا من الاجتماع.

وقبل العودة إلى السجن أدخلونا إلى قاعة صغيرة بانتظار قرار مسؤولهم، وفي هذه القاعة دار نقاش هادئ وجازم بيننا، فالبعض يعتبر موقفي عبثياً، وكان ردي أن لا مانع لديّ من أن يتولى المهمة شخص آخر مع الالتزام بالثوابت، وبررت موقفي بأنه يحافظ على كرامة المعتقل وبالتالي يتسم برؤية شمولية وتحليل لموقف السيد «نير» إذ ما جدوى أن تحاور شخصاً غير مخوّل ولا مفوّض، ويضع سقف الحوار، ويحدد ما علينا أن نتوقع وما يمكن أن يتحقق، إضافة إلى أن موقفي يحمل آخر ضغط نمارسه قبل الاتفاق لإنهاء الإضراب.

عدنا إلى الاتفاق وتخويلي الحديث وصلاحية الحوار كلها في يدي.

جاء ضابط الأمن طالباً منّا العودة، فالسيد «نير» جاهز لتنفيذ ما نتفق عليه والطلبات الأخرى التي لا يتم الاتفاق عليها يعود بها إلى وزير الشرطة.

عدنا للقائه بعد أن قلصنا عدد الرفاق إلى النصف.. بدأ القول إن هذه طلباتكم أمامي، وبعد أن درستها سأحاول أن أرد عليها بنداً بنداً وطلباً طلباً.. وأعتقد أننا سنصل إلى تفاهم بشرط أن تنهوا الإضراب قبل تحقيق أي شيء..

اعترضت على الشرط المسبق وقلت: يمكن أن نبدأ بالتدريج.. أنتم تقدمون ما نتفق عليه دفعة واحدة، ونحن نقوم بحلاقة الذقن فقط.. انتظاراً لتحقيق ما اتفقنا عليه، فإذا عدتم عادت ذقوننا فهي شعر ينمو!

أجاب السيد المدير:

- نعم.. ليكن ذلك، ولنبدأ بالنقاش.

- اسمح لي أن نكمل اتفاق المبادئ، أرى أن نناقش موضوع لجنة تمثل المعتقل، نحن نعتقد بأننا مناضلون بصرف النظر عن موقفكم منّا.. هذا المعتقل يمثل وحدة اجتماعية وطنية ويمثل اتجاهاً سياسياً واضحاً.

وقبل أن أكمل قاطعني:

- هذا من المحرمات ولا نوافق عليه تحت أي ظرف.

- حسناً.. نحن هنا على أي أساس نجتمع؟ أليس كل واحد منّا يمثل غرفة ؟

- صحيح ولكن لا يمثل «فتح» أو «الديمقراطية» أو....

- إذن أنت تجتمع مع ممثلين للمعتقل، دعنا نتفق على هذه النقطة.

- نعم أنا ألتقي بكم على أساس أنكم تمثلون تجمعات.

- ما الفرق إن كان العدد ثلاثين أو عشرة؟

- لا، هنا لا أوافق لأنكم تريدون أن تأخذوا مني اعترافاً لموقف سياسي.

- لم يخطر ببالنا هذا بقدر تنظيم العلاقة بيننا وبين الإدارة، وأقترح أن يكون العدد سبعة أشخاص.

- ولماذا سبعة؟

- لا يهم العدد، مجرد اقتراح قد يكون خمسة أو عشرة.

هنا تدخل المدير على أن العدد سبعة ملائم لسبب توزيع الحصص.

قلت:

- سيد «ديستلفلد»، أنا أوافق على المبدأ وندع التفاصيل معك حتى يرتاح السيد «نير» من أي التزام بالعدد.

وهنا قال «نير»:

- لنطوِ هذه الصفحة ونبدأ نقاش الطلبات.

- مرة أخرى أعترض لأننا لم نتفق على المبادئ.

قال:

- لجنة ووافقت على تشكيلها، وماذا بعد ؟

- سأبقى في إطار المبادئ.. أنا كمعتقل لي حقوق إذا مُنحت لي فمن حقي ممارستها أو رفضها.. أي المسألة تدخل في باب الإقرار بالحق دون ممارسته، وأعتقد أن اتفاقية جنيف تسمح لي بممارسة لعبة كرة القدم أو السباحة... الخ.

انتفض، حاول النهوض عن كرسيه، وتململ بعض الرفاق.. فأصبحوا هم في هرج ونحن في مرج.. فمن الرفاق – يا عزيزتي – من همس إلى أين أنت ذاهب ؟

قلت :

- دعوني أكمل..

وخاطبت السيد «نير» :

- لم أسمع إجابة أو رداً ..

قال :

- هذا ضرب من الجنون، وأنا لا أوافق.

- إذاً أرجو أن تستعمل كلمات أكثر لياقةً بجنرال وإلا تلاشى هامش الاحترام، وبالتالي أنا أنتظر إجابة على طلبي، لماذا ترفض أن أمارس حقاً أراه لي ؟

- أين ستلعب ؟

- إذاً المشكلة في عدم توفر المكان، أليس كذلك؟

- نعم. ليس باستطاعتي توفير المكان.

- شكراً.. وأراني أقدم امتناني على تفهمك، أنت تقر بحق وأنا أفهم إمكانية عدم ممارسته، ولكن إذا كانت المشكلة في المكان فهناك إمكانية لملعب كرة سلة وطائرة وكذلك طاولة تنس.

- أين ؟

- في الساحة «ب».

- هل هناك إمكانية؟ سائلاً مدير المعتقل...

أجاب الأخير:

- إنه - مشيراً إليّ - يعرف طولها وعرضها بالسنتمتر.

قال السيد «نير»:

- لنفرض أنني وافقت، فمن أين لنا بميزانية تصل مائة ألف ليرة بلاط وشبك ورمل...

- أراني شاكراً إياك مرة أخرى لأن المشكلة في توفير المال، ودعني أرمِ الكرة على الصليب الأحمر لتجهيز الملاعب.

- هل يوافق ؟

- إذا وافق، لعبنا وإذا لم يوافق لم نخسر شيئاً.

وبعد أيام وافق الصليب الأحمر على تجهيز الملاعب وشراء طاولة تنس.

وهكذا خرج السيد «نير» بعد أن أفرغ ما في جعبته.. وعدنا نقف على قبة السماء.

* * *

الـفـصل الـثـانـي

لا يمكن للمرء أن يدرك بعد شخصية ما أو يلمس صفاتها إلا بوقائع ملموسة ومدركة.. ولا يمكن تقييم أي إنسان استناداً إلى شعارات يطرحها وأفكار منمقة تواكب حضارة العصر أو من خلال طرحه لمبادئ – نظرية – يثيرها من باب الجدل لا أكثر ولا أقل.

سُئل الرسول الكريم «ما هو الإيمان ؟». أجاب: «ما وقر في القلب وصدقه العمل».

ذلك الحديث فلسفة كاملة للسلوك البشري. إذ لا بد من ترجمة لِمَ نؤمن به، ولا بد من واقع ملموس من خلاله نعرف أو نكتشف كنه الآخرين، فالواقع هو المحك الصلب للذات البشرية.

* * *

مررت معه بتجربة مرة مع بعض صغار النفوس، اساؤوا إليه من خلال علاقة اجتماعية ربطته بهم.. كان بها في قمة النبل والأخلاق معتقداً أنه يقدم المساعدة الإنسانية لهم..

«كأب وأخ كبير».. وكانت النتيجة الطعن بالظهر وردة فعله «أولاد... سيكبرون».

قلت له غاضبة :

- هكذا ببساطة ؟

- نعم... إذ لا يمكن أن أرد الإساءة بمثلها فهذا ليس من طبعي.

وتابع :

- لقد تعرضت لإساءات كثيرة وأكبر من هذه «الهرطقة» لكني أبقى سيد الموقف بتسامحي.. والكبير لا يصغر. وأضاف: تصوري يوم كنت في السجن.. انقطعت أمي عن زيارتي حوالي العام.. وانقطاعها جعلني أعتقد أنها ماتت.. وشيعتها في أعماقي.. ودعوت الله أن يغفر لي إن كنت سبب موتها، وبدأت ترميم جرحها.

وبعد شهور طويلة عادت.. لم أصدق عودتها.. لكنها كانت هي.. سألت عن سبب غيابها عاماً كاملاً.. وكان جوابها أقسى من موتها.

قالت :

- كنت في السجن.. أقصد موقوفة بعد أن وشى «أبو ماهر» أنني أدخل الأرض المحتلة لزيارتك.. لكن الرفيق «طلال ناجي» سعى لإخراجي من السجن.

دارت الأيام يا عزيزتي.. والسجن فتح أبوابه وألقى بنا فوق طرقات غريبة.. عدنا إلى الأهل.. ولم أكن أتوقع في اليوم الثالث للقاء أهلي في «جوبر» وفي زحمة وئام العائلة.. أن ألتقي السيد «أبو ماهر».. اقتحم دارنا ودنا من قدمي راكعاً.. قال وهو يبكي:

- أنا أخطأت.. افعل ما تشاء.

تسمر الحضور بانتظار ما أقول وأفعل..

وببساطة قلت له:

- بالتأكيد يا عزيزي ضربته..

ضحك «أبو عرب» بمرارة وفي عينيه دمعتان أبى ذرفهما وقال:

- لا.. أبداً كل ما فعلته أنني أمسكت به، ورفعته عن قدمي.. وقلت له:

- اذهب لا أريد أن أرى وجهك طيلة حياتي «حسبي الله ونعم الوكيل» .

خرج مسرعاً وهو يجهش بالبكاء... صدقيني لم تمض فترة وجيزة إلا واعتقل بتهمة الجاسوسية. إذ «لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله» لا يمكن أن أكون إلا أنا.

قلت له:

- القرآن الكريم يقول: «العين بالعين.. والسن بالسن»..

أجاب :

- نعم.. ولكن حين يكون الخصم نداً لي.. وليس صغيراً، فالقوة أن تترفع عن الصغائر والصغار وعن الأحقاد والتفاهات لا أن ننحدر إليها.. فما عانيته في السجن أو ما حملته على كاهلي منذ الصغر جعلني أكبر بطريقة غريبة.. لدرجة لا يمكن إلا للقلائل فهمها.

- أي كما قال المتنبي: تصغر في عين الكبير الكبائر..

- بالضبط يا عزيزتي.. والمثل الصيني يقول: «إذا كان خصمك ضعيفاً فقوّه».

* * *

يقول علماء النفس في نظرياتهم المتكررة إن القهر والعذاب والاضطراب عوامل تؤدي إلى خلق نوعين من الإنسان في المحصلة:

النوع الأول: هو الإنسان «السادي» الذي يسقط معاناته وظلمه وحرمانه على الطرف الآخر ولا ينفك عن إيقاع هذا العذاب إلا باستسلام الطرف الآخر واعتراف الضحية بفوقية السادي وقوته.

والنوع الثاني: هو الإنسان «المازوخي» أو «المازوشي» وهو الذي يسقط معاناته على نفسه تحديداً ويتلذذ بعذابها خوفاً من إسقاط هذا الألم على «الضحية» تحسباً من ردّات فعلها والتي يمكن أن تكون جارحة وقاتلة «للمازوخي» نفسه، لذا نراه يؤثر تعذيب نفسه على تعذيب الآخر.

فأين هي إسقاطات الإنسان المقهور الذي تحدث عنها علماء النفس لدى «إبراهيم سلامة»؟.

لا جواب، لأن واقعه الملموس.. يُقر بعده عن الأثر السلبي الذي خلفه السجن.. ولو دققنا بسلوكه داخل السجن لوجدنا أنه من المنطق والعدل إنصافه بعيداً عن خطأ التحليل والتركيب الذي يقع به البعض.. إما لقصور في الفهم وضيق الأفق.. أو نتيجة ضغائن وأحقاد لا مبرر لها.

فالإنسان الذي يحمل بين طياته جذور الأخلاق الوطنية الراسخة بكل امتداداتها النقية والثابتة... لا يمكن أن يكون إلا أكبر من الفلسفة الوجودية.. والميتافيزيقية أيضاً.

إن الألم الذي عاشه وكابده.. اعتصر منه سلبيات نفسه وطهرها من شوائب الأنانية التي تسكن في جوف كل منها.

فكان ألماً إيجابياً وليس هداماً كما قرر علماء النفس، وإن الإنسان الذي أجروا عليه تجاربهم هو إنسان نما في الهواء، فالمصائب الكبيرة.. لا تكتفي بأن تخلق الإنسان السلبي أو تصنع الإيجابي فما هي إلا إعصار يقتلع أهواءنا ورغباتنا.. لتبقى ثوابتنا واضحة جلية للعيان بعد هدأة الإعصار، وإن أدت إلى اقتلاعنا فلا ثوابت لدينا.. ولا نحن جديرون بالحياة.

فما وقع على «أبو عرب» من ظلم واضطهاد أكبر بكثير من طاقة الإنسان العادي على الاحتمال.. إن كان قهراً جسدياً.. أو حرباً نفسية أو فكرية.. والسبب بسيط هو حمله للوطن في عقله وقلبه.. والسعي جاهداً لترجمة هذا الحب فعلاً لا قولاً.. ممنوع على المرء أن يحمل معتقداً.. أو فكراً.. أو حباً.. وطنياً ويناضل من أجله.. فهذه الحرية التي تقرها كل دول العالم المتمدن تُسلب منّا.. و«إبراهيم سلامة» شأنه شأن الكثير يحاولون قتله لامتلاكه هذه الحرية.

«إبراهيم» وأثناء محاولة تكسير أطرافه وأضلاعه وحتى رأسه، وأثناء تعرضه للقتل بين الفينة والأخرى.. تجده دائم التفكير بأهله وبأصدقائه.. يتساءل عن حجم الألم الذي سببه لهم..

يقول:

- بعد اعتقالي لم أفكر بنفسي نهائياً.. فهذا الثمن في الحسبان منذ اختياري طريق النضال.. لكن الذي آلمني هو ألم أهلي.. وإني السبب في دموع أمي.. واحتراق أبي الصامت..

فلقد جرت العادات والعرف – في العائلات الفلسطينية – على إعلان الحداد لفقد الأبناء، إما موتاً أو أسراً.. ولا ينتهي الحداد إلاّ بعودة الغائب في حالة الأسر..

هذه العادات آلمتني كثيراً لدرجة أني بكيت منها وأنا لا أعرف ما هو البكاء.. أعرف فقط الحرب وقتل المحتلين في فلسطين، أدركت ببداهة ابن الأرض أن أهلي لا فرح عندهم بسببي.. ولا كعك في العيد كما جرت العادة في أعرافنا ولا تلفاز لأخوتي.

ويتابع متسائلاً:

- ما ذنب أخوتي بهذا الحرمان ؟ ما ذنب أمي أن يقتل عمرها وأبي؟ ما ذنب أختي الوحيدة أن يعتقلوا فرحها بالزفاف؟

وبدأت أرتب يا عزيزتي للحرب مع أهلي.. في سبيل انتشالهم من هذا الحزن والألم.. ويرتاح ضميري اتجاههم.. لأواجه مصيري بنفسي وأنا مرتاح البال.

وبدأت بكتابة الرسائل...

نجحت في مواجهتهم.. واشترى والدي تلفازاً وتزوجت أختي.. وسارت حياتهم كما أريد.. وإن كنت متأكداً أن أمي وأبي لا فرح لديهم.. فرغم محاولتي لإخفاء الألم الذي أعانيه.. كانت أمي لا تخفي دموعها.. أذكر مرّة وفي سبيل ألا تراني مكسوراً... افتعلت الكذب أمامها والصحة خوفاً عليها من الانهيار.. وانهيار فرح العائلة.. وكان ذلك في عام 1974.

يومها طلبت من الممرض أن يفك الرباط عن يدي المكسورة ويفك خيوط الجرح.. وعندما أعود من الزيارة يعيد لف يدي.. التقيتها.. وأنا أحاول إبعاد يدي أمامها.. والأوجاع تلتهمني وأنا أتصبب عرقاً من مكابرتي.. ولحظة أعادني السجّان.. أمسك يدي اليسرى.. صرخت من وجعي وانفتح الجرح ثانية وكأن شيئاً لم يكن.

حاول الممرض خياطة الجرح.. وفي النهاية استعان بملاقط معدنية.. وأنا سعيد لأن أمي لم تلحظ يدي.. عادت وهي فرحة لرؤيتي سالماً وصحتي جيدة.. وعدت مرتاحاً لأني حققت لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة.

* * *

للكبرياء.. ألوان متعددة.. وجاذبية ما..

وللكرامة.. طقوس متعددة... وسحر ما..

وكلاهما يحرقان من يحملهما دون سواه.. ولكن يحرقان حتى الذوبان من لا يحملهما..

فلا يمكن لي أن أتصور إنساناً دون كبرياء ودون كرامة.. تماماً كالورد الذي لا يمكن تصوّره دون عبير.. فحين يخلو المرء من أي صفة منهما يفقد نفسه.. ومتى فقد الإنسان نفسه فقد كل شيء..

والتنازل عن أي قيمة منهما هو التنازل عن كل شيء.. ولا يمكن الوقوف على قبة السماء كما يقول «إبراهيم سلامة».

وانطلاقاً من قناعاتي هذه.. سألته:

- هل يمكن للسجين أن يتنازل ولو بكلمة عن بعض مواقفه أمام بشاعة الضرب والتكسير والقتل الذي يمارس عليكم؟

- يمكن للإنسان أن يسمو وأن يمر بالمقابل في لحظات ضعف، ولحظات الضعف هذه تموت سريعاً، وإذا استمرت كسرت حاجز الانهيار وأوشكت الذات على السقوط.. ولا يمكن أن نتحدث عن المجموع دون أن نشير إلى مفردات المجموع.

أي شخوص هذا الجمع، والخاص هنا يأخذ اتجاهين مع تفرد الأول صاعداً والآخر هابطاً، أو منكسراً فلا هذا ولا ذاك بتفردهما يسمان الكل.

وعندما نلتقط لحظة الانهيار أو ندركها فلا تصبح هي مدخلاً للسقوط، أي أن الانهيار بداية اعتقاد يدفع المرء لتفادي الضرر الأكبر.. وهكذا يقع في الضرر المحرم والممنوع.. وفي تلك النقطة لا يستطيع اجتيازها إلى الأعلى بحكم الأعراف والمعتقدات، ويبقى في بؤرة قد يتآكل وقد يموت فيه الضمير.

سأروي لك حادثة بسيطة..

عندما ذكرت لك حادثة جرس الإنذار، وقام المدير بصفعي عدة مرات.. وأنا أبتسم.. بعد فترة قابلني وقال:

- رغم كرهي لك، لكنك تحظى باحترامي، أذكر يوم صفعتك.. ولم يتغير اتجاه وجهك، ولم تحاول الهروب أو تغطية وجهك.. بعدها

شعرت بندم ولا أطلب أن تسامحني، ولكن قبل أن أغادر السجن، أحببت أن أقول كل احترامي لك.

لكني يا عزيزتي تبسمت وسألته: هل تريد أن تحظى باحترامي؟

- قال: يا ريت!!

- الموضوع بسيط، أنت في نهاية الأمر سجّان، وأنا سجين، تملك كل إمكانية لضربي وحتى قتلي دون أن يكون لي حق الرد، وإذا توفر لي حق الرد والتكافؤ لحظتها سأحمل الكثير من الاحترام لك.

نهض من خلف الطاولة وقال للضابط:

- أعيدوا هذا الكلب إلى الزنزانة قبل أن أسحقه.

وعدت إلى القيد وأنا أشعر أن القيد باتساع حرية اختياري وكأنني على قبة السماء.

وسأروي لكِ حكاية مع مدير آخر:

جاء مخلّصاً لإدارة السجن من أزمتها وعقدة عسقلان، فأول ما فعل: عزل مجموعة من المعتقلين، شعر بعد ثلاثة أشهر أن هذا العقاب لا يقدم ولا يؤخر، فعدنا إلى المعتقل، وكان الإضراب، وتمت مصادرة رسالة من أحد الرفاق.. فجاء المدير إلى غرفتي وخاطبني قائلاً:

- الأوراق التي تكتبها وتوزعها لن تنفع.

فقلت مستغرباً:

- أية أوراق !!

- قال: هذه الورقة... (وأخرجها من جيبه) إنها بخط يدك.. أقر ذلك تشابه خطك مع رسائلك وفيها تحريض وأنا لا أسمح بالتحريض.

- قلت: أرجو أن نسمي الأشياء بأسمائها.. مثلاً عندما توجه الشرطة.. لا أعتقد أن في هذا التوجيه تحريضاً.. وكذلك عندما نوجه رسالة توجيهية فلا أعتقد أنها تثير مشاعرك على اعتبار أننا عدّوان.. وما تسميه تحريضاً سأسلم بوجهة نظرك، لكنه رد فعل على سياستك.. إذا انتهت معاملتكم أو تغيرت نحو الأفضل، يقل التحريض وربما يتلاشى.

- قال: أنا أتيت لأحذرك وأقول إنني مستعد لتلبية طلباتكم التي أراها معقولة.

- نحن نعتقد أن هذه الطلبات جميعها أقل من معقولة، أي هي ليست كل شيء.

- أجاب: سأحني رأسي هذه المرة وأبلغكم أن توقفوا الإضراب.. وأقول لكم إذا أضربتم مرة أخرى سيكون لي موقف حازم.

- حتى المرة القادمة ستختلف الظروف والمعطيات، والذي يبقى منّا يتذكر هذه اللحظة.

ضحك كثيراً .. وتوقف عند الباب وقال:

- ستبقى هنا طويلاً.

- ربما لن تبقى أنت طويلاً.

بعد هذا الإضراب يا عزيزتي انتقل.. لأنه لم يكن مخلّص إدارة السجون من عقدة عسقلان.

أما الثالث يا عزيزتي فقد دخل في يومه الأول إلى الساحة، ودليله يشير إليّ، وعندما وصلت في الدوران إلى جانبه.. استوقفني وأمسك بإصبعيه طرف قميصي عند كتفي الأيسر.. ووضع يده الأخرى على أنفه ثم قال:

- أنت صاحب الوجه الأسود...

- رائع أنكم ما زلتم ترونني على ما أنا.. والأروع أنني ما زلت أسود..

التفت إلى مساعده وقال:

- خذوه إلى المنفردة واجمعوا العدد الكافي من أمثاله.

- كم مفرح هذا القرار، لكن لن تستطيع حل عقدة عسقلان.

وهكذا تفتح الزنزانة أبوابها لتعيد ترتيب ما يمكن أن نفعله في وجه هذا الروماني القادم إلى المجهول، والباحث عن انتصار أمام منتصرين، وكان الإضراب الأكثر نعومة وصبراً..

عاد السيد «ديفيد ديستلفيلد» يبحث عن مخرج ولم يفلح رؤساء بلديات وأئمة مساجد وأطباء في إخراجه من مأزقه، فأرسل نائبه يفاوضني.. رفضت، وكلفنا الرفيق «نبيل قبلاني» ولكن نائب المدير أصر على حضوري وكان جوابي:

- أنا أمثل المعتقل وإرادته وكبرياءه.. كما هو «نبيل» ولكن لا أُفاوض إلاّ المفتش العام أو مدير المعتقل.

في نهاية الأمر قرر المدير أن يجد مخرجاً لمأزقه بالتفاوض المباشر وقال:

- لا أستطيع تحويل معتقل إلى مدرسة داخلية، حاولت أن أجد لغة بيننا غير لغة الإضراب، ولكن لم أنجح، وها أنا أسلم بفشل سياستي.

- قلت: ما دامت الحياة تتطور وتتغير، وما دمنا هنا سيبقى ما نفعله من أجل بقائنا وتطور حياتنا، لذا نقر بأن سياسة تنسجم مع فهمنا سنكون معها على استعداد لرفع سلاح الإضراب المنهك لنا ولكم.

- لتعلم أنني لست بقرة تحلبونها، وإذا تم ذلك يمكن أن «أبوّل» في الحليب.

- ربما لا نستطيع قبول التشبيه لسبب بسيط أننا لا نأخذ ما ليس لنا وننصح بالتعاطي الإيجابي.

انتهت الجلسة.. وعدنا نحمل بذور انتصار نزرعه ونقطف كتباً ومكتبة..

* * *

- تناهى إلى سمعنا وجود الجواسيس في المعتقلات إما ضعفاً لعدم قدرتهم على المقاومة.. وإما بشكل مقصود يتم إيقافهم بينكم فما

مدى صحة هذه الأقاويل.. وهل كانت ملموسة أثناء وجودك في السجن طيلة اثنتي عشرة سنة؟

- علينا أن نتناول الموضوع وفق السؤال في ثلاثة محاور:

المحور الأول: يجب أن نفرق بين عدم القدرة على التحمل التي تقود إلى انهيار في فترة التحقيق وما تسببه من كوارث وأضرار تفضي في نهاية الأمر إلى ضرب بنية صغيرة كانت أو كبيرة، لكنها كحالة يمكن دراستها على ضوء قدرة التحمل وحجم الضغط الممارس على الفرد..

فإذا كانت قدرة التحمل أقل ونتيجتها كارثية لكنها في نهاية الأمر يمكن أن تفهم لا أن يُسلّم بها، شريطة أن يقوم الفرد بممارسة تنسجم وتتوافق مع موقف الوطن، والنضال هنا وبزوال الأسباب يمكن أن تتغير الممارسة والسلوك هذا ما يمكن أن نسميه انهيار الطاقة والقدرة شريطة ألا تقود إلى التعامل.

المحور الثاني: واضح وهو وجود عملاء في مراكز التوقيف يلبسون لباس الوطنية ويجرون الموقوفين إلى الإفضاء.. أو كشف طبيعتهم أمام مناضلين مثلهم.. مما يؤدي إلى إيصال هذه المعلومات إلى المخابرات، وهؤلاء من الصعب الاقتصاص منهم داخل المعتقلات، هم يؤدون دوراً ويخرجون.

المحور الثالث: هو تعامل معتقل مع الإدارة بشؤون تخص المعتقلين في حيزهم، أفكارهم، سلوكهم، تخطيطهم لإضراب أو هروب أو ضرب الشرطة، أو تمرد.. أي عليهم أن يقدموا تقريراً

وافياً.. وأحياناً إذا التقطوا أي شيء يخص العمل الوطني وعلاقة المعتقلين بتنظيماتهم.. هؤلاء ليس لديهم دوافع، أما أسباب تعاملهم مختلفة من واحد لآخر.. فمنهم من تم تجنيده أثناء التحقيق موعوداً بحكم قليل وبعدها إطلاق سراح، والآخر نتيجة إغواء بزيارة أو تخفيف حكم، أو تسهيل جنسي سواء كان عن طريق أخذه وإحضار مومس، أو تسهيل «اللواط» في سرية تامة عن طريق وضعهما في زنزانة واحدة، ويتم التهديد بفضح العلاقة سواء عن طريق تسريب الخبر، أو مواجهتهم بصور تلتقط لهما دون علمهما.

وعلى سبيل المثال لا الحصر:

واجهتنا أكثر من حالة وتم التحقيق والاعتراف البين والواضح والمكتوب إقراراً به من قبل المتعامل.. وتمت عملية الإعدام بحقهم.

لكن لا تعتقدي أننا نعرف كل شيء برغم التتبع الدقيق للجنة الأمنية والمنظمات كافة، أعتقد أن الإدارة كانت تغير من وسائل اتصالها معهم وربما غيرت أحصنتها لكن في المحصلة كنا نستطيع أن نضع في حسابنا كل الاحتمالات.

- وكيف يتم إعدامهم ؟

- يكلف من يقوم بالمهمة في زنزانة العميل بقتله عن طريق الخنق وبالتالي يبلِّغ المنفذون السجّان أن كلباً تم قتله. يأخذون الجثة والمنفذين وبالتالي يقدمون لمحاكمة تصدر أحكاماً إضافية على حكمهم.

- ألا يمكن أن يكون بينهم أبرياء، وإن التشكيك بهم من باب رمي الفتنة بينكم من قبل إدارة السجن ؟

- نعم.. الشق الثاني مأخوذ بنظر الاعتبار، والذين تم التحقيق معهم لم يعدموا جميعاً لأن مجرد الشك في براءتهم يجعل الحكم غير قابل للتنفيذ، أو حتى المحاكمة لا تكتمل أركانها.. فإذا حقق مثلاً مع عشرة.. وأدين وأعدم واحد فقط.. فهذا يتم بناء على اعتراف كامل وبأدلة دامغة.

- هل يمكن أن تروي شيئاً ولو موجزاً عن حالة أو أكثر.. وهل لي أن أفهم أكثر سلوكهم واستجابة المشبوه؟

- مرة اشتبهنا بأحدهم والاشتباه بحد ذاته يقود إلى السؤال: هل ترتقي الشبهة إلى حقيقة اتهام وإدانة، أم هي مجرد شكوك؟ وأمام ذلك لا بد من التحقيق وتم ذلك، في البداية قطعنا عهداً على أنفسنا أمام المشبوه أننا نكفل له العدالة وسنكون متسامحين إذا قدم لنا المعلومات المطلوبة.

- أقاطعه: أية معلومات تريدون، وتقطعون بضمان حياة المتهم قبل التحقيق؟ ألا ترى في ذلك مجازفة غير محسوبة؟

- نعم.. المجازفة محسوبة والمعلومات التي قدمها تتلخص في معرفة طريقة تجنيد العملاء وطرق الربط والمعلومات المطلوبة والشبكات – إن وجدت – وكيفية ارتباطها وكلمات السر والمهام الموكل بها بعد الخروج من المعتقل، وما هو المقابل لتلك الخدمات إن كان هناك مقابل... وأقسم أمامنا على أن لا يخفي شيئاً.. ويكون ثمن ذلك فقدانه أولاده.

وقبل أن يرفع يده عن كتاب الله قال له الأخ «أبو محمد حافظ» وهو أكثرنا تديناً:

- أنت تعلم يا أبا سمير رهبة اليمين وحساب الحانث به وعقابه.

قدّم ما كان يلزمنا وقدم معلومات أدت إلى كشف آخرين، وبعد التداول قررنا إعدامه مع وقف التنفيذ، لأننا لم نرَ وجوب وإمكانية الإعدام كون المعلومات التي قدّمها غير كافية للحكم المبرم وإعطاء فرصة لتوبته، وعلى المستوى الآخر أصبح مكشوفاً ولا يمكن أن تستفيد منه إدارة المعتقل.

مرّ شهر وأثناء التنفس، قامت الإدارة بنقله إلى الزنازين الإفرادية موهمة إياه بأننا سنقوم بتصفيته، وهنا كان لا بد من ذلك، على إثر ذلك قام الرفيقان وألقيا عليه «غطاء الريكار» الموجود عادة في الزنازين الإفرادية مما أدى إلى كسر في يده ورأسه ولم يمت.

بعد فترة قصيرة أبعدوه إلى جنوب لبنان. واعتقل هناك فترة ثم أُخلي سبيله.

- ألم تحاكمه الفصائل في لبنان ؟

- تم استجوابه.. وأخلي سبيله. لكن دعيني أكمل الحكاية: في سنة 1985 وبعد وقف إطلاق النار في حرب المخيمات، دخلت مع لجنة التنسيق إلى المخيم.. وفي أحد المكاتب وفي اجتماع عام، تقدم مني رجل وأخذ يقبلني وهو يبكي ويصرخ: أولادي الأربعة فقدوا... نظرت في وجهه محاولاً إيجاد كلمات تخفف عنه فلم أجد، وعندما طال صمتي قال:

- ألم تعرفني؟ أنا أبو سمير..

حضنته، ناسياً أمام مأساته تاريخه.. وربما دفع ما كان مقدراً أن يدفع.

* * *

أسأل أبو عرب في النهاية:

- كيف ترى السجن الآن، أو كيف تحيا الحياة بعده؟

عندما ترحل إلى الوطن وتعود إلى الحنين والشوق أرقاً، يتسامى الجرح زهرة رمان، يتحول الدم زئيراً أبدياً مستحيل الخفوت، وكريات دمك دبوس ينغرس بين العقل والإدراك، لحظة إذ أنت الوطن والوطن فيك.

والرحيل رحيلاً اختيارياً، حياً أو شوقاً.. وأمامك بوابتان «جدث يمتد على مساحة الجلد، وأخرى بالكاد تراها».

حاولت الخروج، كان المكان ضيقاً، حاولت الهروب.. كان الهروب هجرة للأرض، ترى البوابتين «الموت والعشق» والموت صبابة العاشق فيك.

تدخل المعتقل، تتضاءل ولا تساوي حبة رمل على ضفاف المقطع أو ورقة صفصاف سقطت على ضفاف «روبين» يتضاءل كبرياؤك، توقده، تمنيت أن لا تكون ابناً لجبل الزيتون، هؤلاء لم

يرفعوا الرايات البيض، وأنت كيف ترفع يديك؟ أنت في الأسر كان يجب أن تموت، والبداية جوف الأرض أرحم.

هل يقتلك الخذلان؟ هل ضاع سلاحك؟ أين تركته؟ وأنت في البوابة وحدك.. تحس بجوارحك المعطلة أنك أمام امتحان جديد... ويتداخل فيك المستحيل، تطارد منارة، تمسك شجاعة.. هل تمسك طرفي المستحيل ؟

طلبت الموت معادلاً للانتماء.. للوجود على أرضك، نزفت قروناً، والدماء تلقي كلمات الأمس، يتبخر من وجدانك الإحساس بالغربة.. رميت الغربة أنت في الأسر.. في الزنزانة إذاً أنت في الوطن.. لا شيء تمتشق، سيفاً، بندقية، سهماً، لديك فقط حواسك، ترفع جسدك، تلقيه في عاصفة، امتناعاً عن الطعام، إضراباً مفتوحاً.

ماذا لديك؟ القليل من بقايا جسد فتكت به أساليب قمع.. أو محاولة لتموت حياً، وأنت تعلن العصيان والصراخ بهمسك «أنا صيرورة النضال، وأنا الفلسطيني المهاجر من يافا إلى عكا، أنا الفلسطيني المهاجر من اليبوسيين وكل كنعان، أنا المهاجر من ذاتي لذاتي ومن حزني إلى أحزاني، أنا الفلسطيني يشدني أسري إلى جذري، أنا الفلسطيني لا أشبه أحداً، وأنا الملك، وأنا المالك، وأنا القتيل وأنا المنتصر».

سألت الرجل الذي لا يشبه الناس:

- من أنت ؟

أجاب :

- أنا من خلف الباب تسللت، ولي تاريخ ولي رسالة.

قلت :

- إنك من خلف الباب تعود إلى حيث أخذت اسمك وتركت تاريخاً لك، وأنا أقر أني صليت ركعتين مع «الخليل»، وأذكر أني تعمدت مع المسيح، وأذكر أني حملت في هجير الصحراء زوادة ناقة «ابن الخطاب».

في البدء كانت الكلمة.. وأول الاتصال بين السماء والأرض كان «اقرأ».

وبين الكلمة الأولى والأخرى للسيدة العذراء وأمر الرحمن «بسم ربك الذي خلق»..

وفي المعتقل.. قال الله: اصمت.. واصبر.. وكان النشيد والقول ولا لحن يغوص في أعماقنا، ولحظة عانقنا الهواء في ساحات مغلقة، وطارت أصابعنا من خلف ظهورنا.. شباكاً تصطاد أشعة الشمس، وندور حول النخلة، نهجئ تفاصيل أرض الساحة لنصطاد حجراً.. نخبئه في أفواهنا.. ولِمَ الحجر؟! ليتحول إلى يراع يخط على بلاط الغرفة أسير أبجدية الله.

وأشتهي تحول إصبعي إلى قطعة من الطباشير يمسكها الشيخ «سالم أبو غنايم» ليرسم حرف الباء أو أن يتحول جلدي إلى رقعة يكتب عليها أسير ويحمل بعدها شهادة محو أمية.

لِمَ لا يتركون أوراقنا ودفاترنا وأمنياتنا وأغانينا، وكلمات الله فينا تحبو في الزنزانة مثلما نحبو.. أم أنهم يريدون كتلاً من لحم وعظم وجماجم!!..؟

لو تعلم الملائكة أن الحجر المغتصب من الساحة يكلف ضرب واحد منّا.. يلهي السجّانين ليتمكن الآخر من اصطياد قطعة العقيق.

والوقت المحسوب بدوران الأرض لا نسجله.. لنا وقتنا.. يبدأ من كتابة الألف إلى الياء إلى الجملة.

تتجمد السنوات ويتشنج الإبهام والشاهد، نرسم ظل الله ولا نعيد ترتيب أرواحنا إلا عندما نقص حواف الجريدة.. نسرق قلماً ونسطر أولى الكلمات مثل بقية الناس... والفارق أن حافة الجريدة والقلم في حياتنا أكثر أهمية من دفاتر البشرية وأقلامها.

وتفر الأرض من تحت أقدامنا سنين.. وتعود أقدامنا، نزرعها، لنعيد زماننا، يتوحد مع زمن الكون، ونحصل على قلم ودفتر بثمن زهيد يساوي خمسة كيلو غرامات من كتف كل منّا.

هل شكسبير قال الحقيقة ؟ أم أن تاجر عسقلان أشد إيغالاً في دمنا أو أن العرب يدفعون أكثر وهم بالفطرة كرماء؟

ومثل تفتح حلمتين ليافعة كان تفتح العيون والعقول على المعرفة، نلوب في الليل.. نقرأ التاريخ من ذاكرة متعلم، ونشعل عيوننا قناديل تحدق في الظلام تسابق سمعنا لالتقاط محاضرة، أو عندما يحدثنا عن قريته، عن عدد حبات التين، ويروي تفاصيل عناقيد العنب في بوابة «الخضر» والآخر يباهي بعنب «بريـر» على الساحل الرملي، والأرض.. وشمس تموز، وهناك على الجبل يتسلق ابن آوى،

ينام، يمتلئ جوفه من نماء الأرض، من بطيخها، ومن فراخ طيورها.. كانت أماسي تحمل سكينتنا.. تهدهدها.. وكان الشعر ديوان الزنزانة ولا يغيب شاعر خلف الباب إلا ويعطي لآخر حضوره، وتسقط فراخ الدوري من أعشاشها عن النخلة التي لم تجاور أحداً، يحملها المعتقلون، تتحول الفراخ بين أيديهم إلى أطفال يربونها.. تكبر.. تخرج من الزنزانة.. تغيب في النهار وتعود في المساء لتنام في الزنزانة.

مرة.. والسجّان يفتح باب الغرفة، شاهد العصفور الجميل على حافة النافذة، صرخ :

- كيف جاء ؟

قال صاحبه:

- هبة الله يرسلها كيف يشاء.

جاء الحراس والضابط والهراوات والمسيل للدموع وكمامات.. دخلوا والعصفور الكئيب يمر من فوق رؤوسهم، كأنه طائرة ترمي الموت.

يا الله، كيف يغتالون العصافير؟ والملاك في داخل العصفور يحط على النخلة الباسقة.. يصفر.. وحاله يقول: أنا هنا.. في علياء الله.. يغادر الجند.. بلا رصيد.. يحملون حسرة.. ويعود الجميل لصحبتنا.

أطارد نسمة الصباح.. وأنا المعلق والمرهون بذاتي أمسك تلابيب جرحي.. قطرة دمي تشتعل، وجرحي يسير خلف أمنية الشفاء

لكنه لا يصل، يراوح على يدي ويدي لا تلتقط نسمة الصباح.. أغادر جسدي المنبوذ في مثلث الغرفة، أسري في الليل.. أبحث عن نجمة مرت يوماً على نخلة ويمر القمر.. أسلم.. ينكرني.. حتى النهار لا يأتي.. أعود إلى المثلث.. أحمل ساقي أداري انكسار وجعي فيها.. رسمت مرة شعر حبيبتي.. ونحتُ على عقلي شكل جديلتها، صليت والملائكة لا تسجل خطاياي.

هاجسي هنا في علبة الكبريت، تتجلى قطرة الدم أمام الله مشكاة.

في أصيل وجعي، قال صديق:

- أتحب الحياة ؟..

وبين النزف والجرح استوطنت الروح.. قلت:

- أحب نهاية الأصيل.. أحب الليل.. أحب خيط شعاع عينيها.. أحب أن أموت على درب الوصول لجديلتها.. هي الحياة.. هي الأرض.. هي النزف.. هي صورة الله.. هي أنا.. فكيف أعيش وأحب الحياة، وكيف لأصيل المساء لا يعكس خجلاً على خديها؟

هي الأرض يا ولدي..

هي تفتح الزهر..

هي قرنفلة على ثغري..

أحب الحياة.. وأنا ألفظ الروح يبتعلني مداها..

أحب الحياة في موتي.. في اتساع حنينها.. وفي ضيق المسافة بين ثغري وعناقيدها.. أسطع لؤلؤة تنام بين نهديها، وأنا المثقل والمتعب بالموت.

أحب الحياة وارسم على اتساع جفن الكون وفي هدأة الريح شكل ميلادي.. وأكتب على عناقيد غضبي حرفاً كان الوصل وكان مفتاح السر وكان مفتاح الخلق، وعلى يدي الموشاة بغبار الأرض قطرة سالت من جفنها لحظة لوحت إلى لقاء.

نعم.. أحب الحياة.. ولا أكره الموت..

أحب الحياة، وتجري أنهار فرحي تصب في قلبها.. يتسامى النبع يحمل أبخرة العشق، يمر على الحقول، ينقشع الضباب.. أتوارى خلف نسمة.. ربما كانت الحياة أجمل مما رسمت..

هل أنتظر الفجر.. أم أسير في الليل وحدي وخطاي يحملها حنيني أم للوقت عذوبة اللقاء.. أم للقاء عذوبة الثغر.. أم للثغر عذوبة النهر.. أم للنهر عذوبة العشق ؟

* * *

شــهادات

التقيت بالأستاذ «إسماعيل دبج» الباحث الفلسطيني المعروف.. والذي تم اعتقاله في عام 1970 أثناء تأديته لعمل نضالي «دورية عسكرية» جنوب الجولان المحتل.. حُكم على أثرها بالسجن مدى الحياة لدى العدو الصهيوني، أمضى منها ستة عشر عاماً في سجن عسقلان.. وتم إطلاق سراحه في عملية تبادل «الجليل» عام 1985.

وهو أحد المثقفين والمناضلين الفلسطينيين.

وأهم إصداراته :

- التحقيق في مجزرة 1990.
- المرأة في التوراة 2000 .
- تأملات في التوراة 2001 .
- ذكريات مبعثرة 2002 .
- «الأصولية اليهودية»، «الحاضر والجذور»، «حمار المسيح» 2003.

يقول:

إن معرفتي «بأبي عرب» سابقة للقائه في السجن. فهو اسم معروف في الجبهة. وتركز اهتمام الجبهة للسعي لإخراجه، وتجلى ذلك أثناء دورات التوجيه لإخراجه من المعتقل قبل أسري.

وكنت أتمنى أن أتعرف إليه إلى أن التقيته في السجن بعد اعتقالي.

له تأثير إيجابي بموقع إيجابي بصفته أحد المسؤولين وله تجربة متميزة مع ثقافة متميزة في المعتقل.

وهذه الإيجابية متنوعة على كافة الأصعدة مثلاً:

إنه يمتلك علاقات واسعة داخل السجن مع الجميع، دون تعصب تنظيمي مع فهم حقيقي للعدو.

وانعكست عليّ هذه النظرة مباشرة بعد أن تأكدت لدي في المعتقل.

هذه الصفة جعلته ممثلاً للمعتقل عن كل التنظيمات أمام إدارة السجن على الصعيد الفردي والجماعي.

وأصبح من القياديين في المعتقل، وذا كلمة مسموعة أمام التنظيمات الأخرى، أي له ثقل نوعي أمام بقية التنظيمات.

هذا الفهم الموضوعي لانتماء السجناء لتنظيمات مختلفة مع تأثيره بهم.. جعل المعتقلين ينظرون للمسألة بديمقراطية أكثر، وبعيداً عن التعصب ، ويمد يد المساعدة في تسوية الفهم التعصبي للتنظيم، ويجد الحلول دائماً لفض الخلافات بينهم.

تركز اهتمام «أبو عرب» بشكل هائل على التثقيف، وله جهد يُشكر عليه في محو الأمية والتثقيف ورفع السوية المعرفية للمعتقلين.

فهو دؤوب على القراءة بشكل غير عادي.. «عادة يومية» إن استطعنا تسميتها.فبعد أن تطفأ الأنوار داخل الزنازين يتابع قراءته على الضوء المنسل من الكشافات عبر النافذة، ويمارس كتابته الإبداعية – الشعر – ليلاً.

كتب الكثير.. ولا أدري أين هي الآن. وأكثر ما تميز به في هذا المجال، نشاطه المسرحي الهادئ والذي أخذ أشكالاً رائعة تركت أثرها في المجموع أهمها:

محاضرات تتضمن التحليل السياسي للأحداث التي نمر بها.. فهو يمتلك عقلية تحليلية متميزة تضفي عليها ثقافته نوعاً من الثقة المطلقة بما يقول ويفعل.

مثلاً زيارة عرفات لهيئة الأمم المتحدة، هذه الزيارة كان يرى فيها بداية فتح بوابة تسوية على حساب العرب على الرغم من أن شبه إجماع في المعتقل على أن الزيارة إنجاز تاريخي وتشكل مدخلاً لقيام دولة فلسطينية. أما هو فكان يرى أن دولة فلسطينية لا يمكن إنجازها إلاّ بالتحرير، ويعتقد ذلك عبثاً وإخلالاً بالمسؤولية الوطنية، وإن التحرير يتناقض بشكل مطلق مع محاولة الاستجداء أو استعطاف الآخرين. ووصل به الحد إلى أنه رفض المشاركة بالاحتفالات التي أقيمت لهذه المناسبة، جازماً بأن الوطن لا يتجزأ وأن مخالفة قناعته

تـؤدي بـه إلـى السـير فـي ركـب التهـادن، ولـم أره فـي حيـاتي جازمـاً وحـازماً أكثر من ذاك اليوم.

وأهـم الأعمـال الثقافيـة التـي قـام بهـا هـي إصـدار مجلـة داخـل السجن.. وتشكيل لجنة ثقافية ورياضية، إضافة إلى المساهمة في لجـان المعتقل كافةً.

يقول إسماعيل دبج عن أهم سمات شخصية «إبراهيم سلامة»:

- مندفع رغم ثقافتـه العاليـة، طيـب القلـب، عفوي، وأشـد مـا لفت انتباهي أنه في الإضـراب يمتلك الـوعي والحـزم، يغضـب ويثـور دون أن يؤثر ذلك في قراره.

إضـافة أنـه شـديد الحساسـية والتفاعـل مـع الآخـر وبـلا حـدود، وإنسـانيته لا تكتمـل إلاّ بالعطـاء. لكـن فهمـه الشـعري للحيـاة جعـل الكثيـرين لا يفهمونـه.. فـرغم فهمـه لـدقائق الأمـور إلاّ أنـه لا يتصـرف استناداً لفهمه، وأعتقد أن هذا هو التفرد الذي يتميز به.

حبه الشديد للرياضـة، لم يكن مقصـوداً لذاتـه، ربمـا للتعبيـر عن انفعـالات.. وإفـراغ شـحنات أخـرى، فبعـد أن ينهـي لعبـه وهـو أحـد اللاعبين في كـرة الطـائرة - السلة - طاولـة تنس... يخلـد هادئـاً لشـرب قهوته والدخان.. ويستعد لمحاضرة في المساء .

وأسأل الأستاذ «إسماعيل دبج» عن مدى تـأثير السـجن عليـه بعـد هذه المدة الطويلة من إطلاق سراحه، فيقول مبتسماً:

- لديّ نافذة مغلقة لا زالت تعيدني إلى السجن. كما أنني أشعر بحريتي بعد العاشرة ليلاً، على الأقل لا يمكن لأحد أن يرغمني على النوم.

ويضيف:

- أحب المسير جيئة وذهاباً لأني لم أكن أستطيع فعل ذلك.

وهنا أتذكر جملة كان يرددها «إبراهيم سلامة» بألم في كثير من الأحيان، يقول:

إذا غادرنا المعتقل فهو لا يغادرنا

والمكان في داخلنا مهما بعدنا عنه.

طائـر عسـقلان

إلى الأخ «أبو عرب»

تجلّدَ خوفُ صوتك
في تجاعيد القيودِ
وأقفلت الحكايات المعاني
وَسْطَ ثرثرة الجنودْ
هنا ... في «عسقلان»
البحرُ مشدودٌ إلى عينيك مجروحُ القصيد
يجمّرُ أبجديته على فحم التنبؤ
بين عكّا والنجود
هنا.... في «عسقلان» الدار
ملحُ الخبزِ ،
حين تصرُّ أبواب الحديد يطيّر
العصفورُ

يفتح للخيال ذُراً
إذا رفَ الجناح قبالة النور الشديد
كسيزيفٍ يحاول.....
كم وكم غنى لتحمله الرياح بلا شهود
لذيذ أن تحاول من جديد
وأن تتسلق الأحلام ظهراً
وتفترش الندى رغم القيود
ويشغلك الغموض بكنز ليلى
وفي عينيك ما الحب مكتنز الورودٍ
وتعشق في فضاء السجن ؟
أن أشعلن شمساً للذهاب إلى البعيدٍ
ترتل أبجديات الحميم من التعارف
حين ضاق القلب في أسرٍ الوجودٍ
كتبت على بلاط الروح أغنية الجليد
ببعض النار فحّمت المراثي كِدْتَ
تبتكر الكتابة – يا عصي الحزن –
مرتبكَ الصعودْ
ومالك بعد تفترش الغبار كأنَّ

راوية الحديث تؤوب نحوكَ بالوعود

تقول : تعال هذا السجن وهم

وكنت الطائر الحلو البريد

هنا وطن ينام على مخدة عاشق

وبحجم زنزاناتهم

ليفيق مزدحماً بمهر الصبح أو حلم الشهيدِ

تفرخ في فضاء السجن ورقاءُ

تجمل حزنها بأبي فراس وردةُ الزمن الفقيدِ

وطار على ضباب الحس عصفورٌ

وحط قبالة الصمت البليد

حنان القلب والكلمات

أمي والعشية خلف قضبان اليهود

وهمّ الطائر الدوري...!

هم الحزن يورق في الخدود

كلا السمتين حرٌ

كانبلاج الصبح

- كيف تزور حزن مسائنا المغلول ؟

تعبر كالشعاع إلى فضاء السجن

كيف تجيء من جمر الليالي

تعلن الفرح المعبأ في النشيد...؟

وهاج الجند والحراس:

كيف تَنَزّلُ الآياتُ زقزقةً ؟

وكيف توضأ الكلمات بالخبر السعيد...؟

وكاد رصاصهم ...

أسلمت للعصفور نافذة الغناء

بكى

وهز جناحه شوقاً

إلى سَعفٍ وراء السجن ممدود.

الشاعر

عبد الكريم عبد الرحيم

الخاتمــة

هي حكاية كل الأرواح..
والأجساد المتناثرة خلف القضبان
هي موسيقا الأنين الصامت
في الزنازين
هي رياح الوطن المكبلة
في فلسطين
هي قصة كل المناضلين
لها عناوين أضرحة
تعربشت البداية
- عذراً من النقاد.
بلا نهاية
فالموت يحصدهم
بلا تأني

زهـرة
آذار / 2014

من ديوانه «تغريبه ابن سلامه»

كتب عن حياته وموته قبل سنين من رحيله00
في قصيدة : الكأس الأخير .

قــال :

اجترع الكأس الأخير
أطوف 000 أحلق
فوق السحاب جثتي
غارقة بالنوم والموت
وفوق الشط تهيم النفس
واغرق 00
اجترع الكأس الأخير
والروح فوق البيد
رمل 00
والصوت ثغاء
اجترع الكأس الأخير وعيون الموت
مفتوحة الجفن

وفي مقطع أخر يقول :

اجترع الكأس الأخير

معلقه ذاتـي
على خطاي
تبت000
انبت00
اجترع الكأس الأخير
والتين 0000
اجترع الخطايا
والزيتون 00
اجترع المنايا000
والعصر 00
إني لفي خسر000
يا الله 000
يا إله الكون
يا إله القلب
اجترع الكأس الأخير
يا الله
أعطني ما في الكون صفاء
اجترع الكأس الأخير
ولا أدري 000
إنه الأخير 000

سجود واحد يكفي للمغفرة

«أيوب» لن تذوب إلا في ماء تدفقي 00

هو الاسم الآخر «لإبراهيم سلامه» في راوية لم تكتمل.

تأنى كثيراً في كتابتها – ليشهد تحولات «كوثر» بعد نهوضها من كل غرق ومن كل العواصف التي تجتاحها بين فينة وأخرى وهي بطلة روايته. هدأت ثورة أيوب بعد أن لمس يقين وجوده الحائر في روايته الميتة «بين رجلين»..

عندما افترش دمه سجادة صلاة وركع.. ربما سجود واحد يكفي للمغفرة لقسوة اللحظة التي أدركها بجبروت وقوة.. ولم تدمع عيناه, ولم يقل الآه.. ولم يلوح بيديه غاضباً..

لكن نظراته المتيقنة من وجودي أمامه ودعتني وأفهمني أنها النهاية. متسائلاً بذات الوقت لماذا الموت بهذه الطريقة القاسية؟

رغم عدم خشيته منه طيلة فترة مرضه.

هربت من سؤاله ومن يقينه. أبحث له عن رحمة ما، عن طبيب ما، عن إنسان ما، لم أجد غير السراب يضمني وأرواح الشهداء تضيء عتمة البيت وتستعد للمغادرة برفقته إلى المجهول وإلى عوالم مجهولة.

لم يأبه أي منهم لتوسلاتي أن اتركوه ساجداً فوق دمه. دعوه يكمل ليلته الأخيرة بهدوء بانتظار قهوة الصباح, التي توقظه رائحتها من نومه

وتشفي ألمه.. لم يكترث أحد بي.. رغم سماعي صوته يناديني.. هرعت إليه لا أدري من أمسك بي, فتعثرت, لألتقط اسمي وقد سقط منه على عتبة البيت. ألفيته بارداً.. لأدرك أنه لم يعد اسمي .. زهرة.

ولتبدأ رحله جديدة من عواصف «كوثر»0

هي دقائق أقل من خمس.. يعجز فن الأدباء عن وصفها وتصويرها لقسوة لحظة الموت فيها ووعي الإنسان لموته خاصة «أبو عرب» الذي عرف عنه قسوة الحياة عليه والأقدار التي كانت ترميه من موت إلى موت فهو نزيل دائم في العناية المشددة في مشفى «أمية» إثر نوبات قلبية تخبره «انتبه لنفسك» وهو غير آبه بهذه الأخبار. إذ يردد دائماً إن السنوات بعد السجن هي زيادة عن عمري لست بحاجتها.

أنتهز الفرصة لأسأله :

- هل أنت نادم ؟

- يقول : أنا نادم على خروجي وعدم استشهادي .

- لماذا :

- في السجن كنت أعتقد أن تحرير الأرض «قاب قوسين أو أدنى» بينما خارج السجن أدركت أن الحلم يزداد توغلاً في المستحيل.

- ولماذا المستحيل ؟

- لأن هناك تجار أزمات لم يكونوا قبل دخولي المعتقل.

«أيوب» لم يكن بطل رواية لم تكتمل فحسب بل بطل حياة عاندها بشخصيته المركبة التي حملت كل المتناقضات.. فبقدر ما يسابق الغيم الهارب من الهطول أراه يستكين بصمت خلف سحب سجائره المتلاحقة.. يتكئ بنظراته على قصيدة ما أو ربما على حلم آخر يخيطه برماد السجائر..

يبحث دائما عن وطن مفقود, تارة يعانقه من خلال امرأة يعتقد إنها هي وتارة يلامس الفقد فيها ويمضي إلى غياهب الديجور بحثاً عن أخرى

بلا ملامح. يرسم ملامحها كما يحلو له. يستعير من بيارات فلسطين برتقالاً لشبه نهدين, ومن الكروم لون الشفتين, ومن الزيتون رسم العينين00 وعلى امتداد الجسد خارطة وطن يتسكع فيه ثملاً حتى الجنون, متشرداً بين أزقته والحواري المزدانة بالحكايات.

ووشوشة العشاق على أسطحة المنازل المنارة بضوء القلب, وإذا ما باغته الفجر خبأ جنونه بين دفتي قصيدة أو قصة قصيرة وغفا..

«أبو عرب» سيّد العشاق في زمن عز فيه الحب 0 وجفت القلوب من نبضها 0 كأن الشوق رماه على سرير الأماني المستحيلة يتأبط خيبة الأمل في منفاه بعد أن غادره المنفيون ابتداء من رفاق الأسر إلى الأصدقاء إلى الأهل أيضاً, يتألم كسماء هوت منها الأنجم لتغدو ذاك الفؤاد الساكن. يرثي فراق حمامه السجن التي هام بها وتمنى لو عاد للقياها ليسكب نبضه في كأسها لتشرب من وجدانه ثم تطير حاملة صداه إلى الجليل أو القدس حيث المرأة التي يختال فخوراً بها.

اذكر انه قال لي يوما وهو يسكب أوجاعه في كأسه:

- إنك تشبهين تلك الحمامة التي أتمنى لقياها ؟

قلت بخبث حواء :

- إنني معك في هذا القفص.

قال :

- لكنك كحمامة السجن, تهربين متى شئت.

قلت :

- ماذا يعني ؟

قال :

يصعب امتلاكك مثلها.

ربما هذا الفارق بيننا جعل علاقتنا تدوم رغم كل خلافاتنا لأكتشف أنها واختلافنا كانت أعقل شيء فينا. إذ كنا نضحك حين نرى علاقتنا

كـزوجين كخطـين متـوازيين لا يمكـن أن يلتقيـا, ربمـا جمعتـنا وحـده المتناقضـات وألـفـت بيننـا بعلاقـة غريبـة المنشأ والأطـوار كـأن أحـدنا يكمل الآخـر فـي تناقضـه وجنونـه لدرجـة الاستهجان الواضـح علـى محيـا المقربين منا.

أما كأصدقاء فكنا أنجح اثنين. إضافة إلى علاقة الأبوة التي جمعتني به وأضفت على حياتي وحياة ابني أسمى وأجمل ألوان الحب الراقي. لتتجلى إنسانيته في أبهى صورها خاصة تجاه ابني الذي يكنّ له إلى اليوم الحب والتقدير.

تلك الألوان الصاخبة بداخله كانت تلون شخصيته كيفما اتفق وكيفما شاء. لذا تراه صعب المزاج والفهم. لكن كنت قادرة على فرز هذه الألوان في قمة تمرده ونزقه لألون ابتسامتي بإحداها وأمزج المتبقي بفنجان قهوته. لينفجر الإبداع ثانيةً مع غضبه.

لذا أراني أقف أمام الله ممتنة لقدر ساقتني في طريقه لأمنحه بعض السكينة والإعصار في لحظة صمته وأنتزع منه ما أخفى تحت تلال همومه الراسية على شطآن صدره تارةً ومواجع القلب تارةً أخرى.

«أبو عرب – إبراهيم سلامة» لم يكن كالآخرين من رفاق الأسر فهو الذي يرش قلبه قمحاً إليهم في كل الظروف ويسوّر جفاهم بيديه ليزرع في مساحة البعد هذه رياحين الصبر وورود دمشقية لا تذبل في تعاقب الفصول..

أذكر أنه وقع يوماً في فخ فتنه نصب له مع أحد أولئك الرفاق.. حذرته كثيراً من الوقوع في هذا الفخ لكن لعناده المعروف رفض سماعي.. فتركته ينصاع لهذا العناد...

توالت الأيام.. لأراه ذات مساء وفيروزنا تشدو بصوتها مع فنجان قهوتنا. دامع العينين, سألته السبب فقال:

- إن صديقي قد ألمت بزوجته مصيبة. وكان يقصد من جافاه بالأمس القريب.

- قلت له : لماذا لا تتصل به؟

- قال: ليس الآن.

تلك الدمعة بقيت كجمرة في قلبي. تنبهني لفعل شيء ما.

لأبدأ بحرق الثلج بينهما بتأنٍ خشية إدراكه ما قررت فعله.

وعندما اشتد مرضه الذي كابر عليه شهوراً غير آبه بنهايته.. اتصلت بذاك الصديق خلسة لأخبره أن «أبو عرب» ربما في أيامه الأخيرة.. ليتصل به فوراً دون أن يبوح بمكالمتي معه ثم يهرع إليه إلى المشفى وأرى ذات الدمعة بعينيه، الدمعة التي حبسها «أبو عرب» على زوجة صديقه قبل زمن قصير.. كان العناق حاراً.. كأنه استراحة المحارب لكليهما..

لتبدأ الذكريات بينهما تتسارع مع الوقت المتبقي من عمر «أبو عرب» وتمحو العمر الذي كان هباءً كما يردد دائماً.

ربما شهادتي مجروحة بـ «أبو عرب» لكن اختلافنا وخلافاتنا الدائمة بما يخص الحياة، تجعلني أقف أمامه مذهولة في «حضرة الغياب» لأصرخ بملء فاهي: لقد قست الأيام عليه, يجترع الألم كما الكأس الأخير من عمره.

انه الإنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من قداسه.. يكفيه فخراً زهده في الحياة.. لم يكن يطمع بالمال ولا بالأضواء.. كان يطمع فقط بقبرٍ في فلسطين يحوي جثمانه المنهك والأسير.. لأراه اليوم في رحيله.. غريباً في قبره، لا أعرف مكانه، ولا أقدر على زيارته..

هكذا رحل بعيداً عن الحياة وعني أنا التي لازمته قرابة ستة عشر عاماً فلماذا اختار القدر هذا البعد لمكانه ؟0

لماذا بقي وحيداً في قبره ؟

لماذا لا نعرف أين موطنه الجديد ؟

أجزم أن الأقدار أقسى من الموت.

كما أجزم أن الحياة رغم جمالها أتفة من الأقدار..

أذكر في إحدى أمسيات الصيف في مزرعة تجمعنا لقراءة ما نكتب كان يتأمل الغروب الجميل في سماء هذا الوطن الأجمل, أنهيت إعداد القهوة.. لأعود إليه أراه ذاهلاً في التأمل..

لم ينتبه لحضوري ولا لرائحة القهوة التي يعشق.. إلا لصوتي حين سألته :

- أين رحلت ؟

قال :

- أتأمل الكون, كيف للعقل البشري أن يستوعب معادلاته المتوازنة وكيف يقنع به ؟

ضحكت قائلة :

- الأمر بغاية السهولة والبساطة, لست بحاجة إلى كل هذا العناء من التساؤلات ؟

- قال: كيف ؟

- قلت: بالإيمان تحتوي هذا الكون. لترتاح من كل الأسئلة وتتأمل الجمال به لا تكوينه !!

- قال مستغرباً: الإيمان ؟!

- قلت : نعم إنه الراحة الداخلية للعقل والنفس البشرية !!

لإجابتي يومها وقع السياط التي أيقظت بداخله أفقاً جديداً.. ليكون غروب ذاك اليوم هو الغروب الأخير من معتقداته المغايرة لمعتقدي.

ذاك اليوم كان بداية ولادة جديدة لـ«أبو عرب» ليتوب من حيرته ويتجه إلى الله بعقله الذي لا يتوانى عن البحث في الحقيقة الأزلية.

بدأ سلوكه يتغير تجاه نفسه.

وانكب على قراءة القرآن يتمعن بكل آية ويبحث عن مدلولاتها الخفية كأنه ينقِّب عن نفسه فيها.

تجلى ألمه أكثر ما تجلى في المشفى في اليوم الأول لدخوله حين قرر الأطباء عدم مغادرته في سبيل تحضيره لليوم التالي لإجراء تنظير الرئة.

ربما أدرك يومها أنه في مواجهة حقيقية مع الرحيل.. بقي متماسكاً نتجاذب أطراف الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل، إلى آن استأذنني وخرج إلى أصدقائه لمتابعة السهرة معهم، في المشفى.

تركني في شرودي وذهولي لرباطة جأشه وجبروته أصحو بين الفينة والأخرى، أتفقد مجيئه.. فلا أراه.. ولا مجال للبحث عنه لأن أجهزة الاتصال الخاصة به تركها فوق سريره ولا مجال للبحث عنه بين الغرف المغلقة والمغلفة بالأنين والأمل.. والرجاء.. تكسوها رهبة مخيفة في ليل كانون أول من عام /2012/ إلى أن صحوت على صوته في الساعة السادسة صباحاً يوقظني لأشرب القهوة..

صحوت على عجل وأنا أعتذر لأني لم أنتبه لقدومه.

قال: لا تعتذري فأنا أتيت لتوي من شوارع دمشق.

خنقت دهشتي وغصتي معاً وافتعلت الهدوء متسائلة:

- شوارع دمشق ؟

قال :

- نعم. فبعد انتهاء سهرتي مع «أبو الرائد وأبو باسل» خرجت من المشفى لأرى جمال دمشق في الليل.. فهي تشبه فلسطين من حيث الدفء

وتذكرني أنوارها البعيدة بمدن ذاك الوطن أيام العمل السري عندما كنا نختفي في عتمة الليل بانتظار الدخول إلى فلسطين.

تصوري ما أقسى أن يدخل الإنسان وطنه خلسةً وكأنه يقترف إثماً سيحاسب عليه, إما بالموت أو السجن.

اصطنعتً الابتسامة وأنا أدرك أنه أيقين أن نهاية العمر بين ساعات أو أيام مهما طالت. وهو يحاول الهروب من نظراتي المتفرسة بقسمات وجهه المتعب..

كتبت غضون وجهه رواية لا أستطيع فك رموزها في الوقت الحالي ربما إن أسعفني العمر واللغة سأكتب ما يليق برجل أعياه التقشف والعقل والشوق لتلك الديار التي قال عنها: حلماً أصبحت في الزمن الرديء.

سألته: ولما رديء ؟

قال: لتغير المفاهيم والسياسات ولم يعد لدينا قيادات أكبر من الرداءة.

قلت : هل يلزمنا جيفارا جديد ؟

ضحك وقال :

نحن بحاجة إلى مئة جيفارا وأكثر من نبي.

تابعت أسئلتي بهدوء مفتعل:

- وماذا اكتشفت أيضاً وأنت هائم على وجهك ؟

- اكتشفتُ يا صديقتي كم كنت تافهاً مع النساء.. ليس هناك امرأة تستحق مني الحياة سواك. لقد ظلمتك كثيراً وأتعبتك.. إنك امرأة تستحق الحياة لصبرها وتفانيها معي...

وقبل أن يكمِّل قاطعته:

- لكن أنا سعيدة معك رغم خلافاتنا..

قاطعني:

- لكني لن أستطيع مسح دمع عينيكِ.. ربما يا غاليتي هذه المرة الوحيدة والأخيرة التي أسير بها دونك. أجزم أنها نهايتي لن أرى دمشق بعد اليوم.

بكيت وأنا أحاول انتشاله من حقيقة الموت القادم.. وكأني أنتشل نفسي من مرارة أيام ستأتي دونه وأراه ثانية بعد موته الأني بصورة أخرى..

أنتبه من شرودي لممرضه دخلت ربما قرعت الباب لا أدري.. ثم دخل طبيب آخر.. ثم ممرضة...

لتبدأ حكاية الأمل الرحيم الذي يكذبون به على المرضى المسافرين إلى عوالم نجهلها.. بلا جواز سفر أو إذن من أحد.. إن الأمل الرحيم أقسى من الموت الرحيم.. ففي الأول يمنحونك الحياة كذباً ونفاقاً وفي الثاني يقتلونك بحجة الراحة الأبدية.

في وطننا العربي يصبح المريض حقل تجارب للأطباء خاصة المرضى العضال. يجربون كل أنواع العقاقير ليتأكدوا من سبر معلوماتهم.. وعندما يفشلون يقولون: انتهى عمره. البقية بحياتكم.

- أما الأمل الذي منحوه لميت مع وقف التنفيذ بانتظار كلمة الله.. فهذا لا يبالون به، غير وارد في قاموسهم الطبي والإنساني فالمهم أن تنجح التجربة أولاً.

رحل «أبو عرب» مع الراحلين. لكن لم يغب مع الغائبين..

ترك تاريخه.. ترك زهده في الحياة ترك قنديله مضاء على درب فلسطين.

أختم الكتاب بنبوءة لإبراهيم سلامة عن ضياع المخيم في معناه الاعتباري وذلك قبل ثلاثة عشر عاما" من سقوط المخيم من ديوانه سفر للريح في قصيدته «يا مخيم»:

يا مخيـــم

أين ترحل ؟
الليل يفتح نوافذ الطرقات
أين ترحل ؟
تلمستُ طريق الموت
أطلقتُ شياطين الرذيلة
تمسكتُ بأظافري
لعقت دمي..

رجوتُ ثناياك تمسك بنا
قذفتنا
وتطول بنا الدروب
وبعض منا يموت
والقليل يؤوب

* * *

يا مخيم.....
طرزناك من أشعة البدر
وهجاً من عيوننا

تسامى في حناياك
كل ما فيك لنا
أترحل قبل أن يأتي وطن ؟
أين ترحل ؟
زرعت فوق أجسادٍ وراها تراب
بدمنا جبلناه

يمشطه آلاف من ناموا
في كل صباح ينهضون
يجولون في الطرقات
يتفقدون أشياءهم
وينامون..
أين ترحل ؟
ومقابرنا تتوالد..

أترحل قبل أن يأتي وطن ؟
أمي أوصتني على عتبة الدار
وهي تسرِّحُ في المساء
غباراً حملته الريح
وعينها تنز وجعاً على غرباء
ناموا تحت التراب.
أوصتك أن تغرس أطرافك في الثرى
أن تحرس دموع الذين فقدوا
كل شيء إلا أنت

قالت جارةٌ لأمي :
أعادوا ولدي مزقةً لكفن
وأنت تغادر ..
ونحن للريح عُراة ..
إلا من قهر غيابك والوطن
أين ترحل ؟
وفي عيوننا قهر
كل حجر فيك شيدناه فوق شهيد
والدم يغسل الطرقات
ووجع الحجارة يتساقط في قلوبنا
ونشد بأسناننا حبال المستحيل
وفي كل مساء يقف الشهداء
يتفقدون دمهم.
يمسدون شعرك..
قال أحدهم : لن نغادر
وسنهد بالمعاول
كل حجر يميل قبل أن يهاجر
زرعناك وطناً
توالدنا ..
سندك حجارة الجدران
ونعيد ترتيب أرواحنا
ودمنا لك خمراً
ولن ترحل ..
ولن تغادر ..

إصدارات ابراهيم سلامة :

1- غرباء – رواية
2- نافذة في جدار قبر- مجموعة قصصية
3- تراتيل مقدسية – شعر
4- أغنيات لإمرأة تسكنني – شعر
5- تغريبة ابن سلامة – شعر
6- سفر للريح – شعر

إصدارات زهرة الكوسى :

1- شعر دمشقي - شعر
2- الطريق إليك – شعر
3- الحلم المسافر – شعر
4- بساط من جمر – شعر
5- العبور إلى المنفى
6- أنين الرمال – شعر
7- تحت الطبع – ديوان شعر بعنوان (بلا أيام)

المحتوى

الصفحة

إهـداء 7
إضـــاءة 9
النشـــأة..... **13**
القهـــر 23
الفصل الثاني 109
شـــهادات..... 130
طائـر عسـقلان 135
الخاتمـة
من ديوانه «تغريبه ابن سلامه» 143
سجود واحد يكفي للمغفرة..... 145
يا مخيـــم..... 155

قبّة السّماء

هذه سيرة تجهر بالمستبطن والمتواري والخفي، داخل أمكنة أعدّت للموت البطيء!

إنها سيرةُ لأسير فلسطين محرر هو إبراهيم سلامة، الشهير باسمه الحركي (أبو عرب)، الذي كان من أول الفدائيين الفلسطينيين الذين عبروا نهر الأردن المقدس باتجاه البلاد العزيزة فلسطين، في عملية فدائية نادرة في جرأتها، وخطتها، ومفاعيلها!

إنه الفلسطيني الذي دخل إلى السجن الإسرائيلي أسيراً في طراوة الشباب فلم يخرج منه إلا وقد اشتعل الرأس شيباً.

في هذا الكتاب سيرة للسجن والعذاب والقهر من جهة، وسير للبطولة، والمواجهة، والمناددة مع النقيض البشع من جهة أخرى.

سيرة يلفّها الجذب والتشويق مثلما تلفّها الأسرار الكوامن!

ISBN 978-9933-922-27-6

سوريانا
SORIANA
2016